أزهار الموت

فايز غازي

رواية

الفارابي

أزهار الموت

فايز غازي

أزهار الموت

روايـــــة

دار الفارابي

الكتاب: أزهار الموت
المؤلف: فايز غازي

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط ٢٠٢٠

ISBN: 978-614-485-044-2

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

جرت أحداث هذه الرواية في إحدى مقاطعات عربستان المتناثرة في زمانٍ لا يعرفه عالمنا... هناك في أحد العوالم الكثيرة المتوازية.. لكن إن شاء القدر فقد يجمع زمانها بمكاننا في هذا العالم!!... لذلك فإن أي تشابه بين أسماء هذه الرواية وأحداثها وبين الواقع ما هو إلا محض صدفة..

فايز غازي

٢٠١٨/١/١

الإهداء

إلى كل الهمسات العالقة في الصدور...

- لماذا قتلته؟
- كان الموت عليه واجباً!!

***

في هذه الزنزانة الصغيرة، بين وحشة الظلام وصِرَّةُ البرد يستلقي جسدٌ متعبٌ، صامتاً رغم الجراح المتلاصقة! صابراً رغم العظام المهشمة! عزاؤه في روحه التي طافت إلى ما بعد الأبصار، متخطيةً دائرة السواد، عائمةً في نصاعة البياض...

لم يبقَ مكانٌ في هذا الجسد إلا واكتوى بآثار التعذيب الهاتفة بوجه جلاديها.. كدمات، حروقٌ، تشققاتٌ، آثار أسلاكٍ، رضّات كرابيج وأعقاب سجائر.. إلا الثغر فقد ظل مبتسماً على الدوام، راسماً تلك الضحكة اللامبالية الهازئة المثيرة للجنون. ولربما كانت هذه اللامبالاة هي السبب في زيادة حنق المحققين وتوترهم، ما كان يثير غيظ الشياطين داخلهم ويطلق لها العنان، فيشكلون من كامل «عجزهم» في الحياة أساليب سوداويةً للتعذيب ويسكبونها عليه.

أو ربما هي رغبتهم بالتعبير عن غرائزهم بشكلها الحيواني الفاضح، أو محاولة بائسة لاستنطاق حقيقة مفترضة في رؤوسهم... لسنا ندري.. لكن ما نحن على يقينٍ منه أنهم عادوا في كل مرة بالإخفاق ذاته، فكلما ازدادوا حقداً وغضباً ازداد هذا الجسد تعميداً وانعتاقاً، وكلما زاد قلقهم زاد هدوءه، وانفرجت ابتسامة أكبر تعبر الشفتين لترتسم في الأثير وتصفعهم صفعاً مظهرةً قبحهم وكاشفةً لعجزهم!

الروح ساكنة، هانئة ومطمئنة، فلا خوف يعتريها، ولا ندم يؤرقها، ولا ألم أو حزن أرضيّ يخمشها، فكل تلك المشاعر قد استنفدت ودفنت بقاياها في ذلك الليل الخريفي! فأفرغت نفسها من ضعفها وأضحت خفيفةً لا يعتريها أي ثقل.

***

- «لقد جئتك بالعشاء يا فارس، هيا اقترب» قال رئيس الحرس، المعاون إياد، واضعاً الطعام على الطاولة الخشبية الصغيرة.
- شكراً يا إياد، اقترب لنتناول العشاء معاً؟
- لقد أوصوني بأن أكون أكثر إنسانية معك في هذا اليوم، لكن ليس لدرجة أن أتشاطر الخبز والملح مع أشباهك؟!
- وما بهم أشباهي؟!

- لا شيء سوى أنهم سفاحون قتلة!

ابتسم فارس وقال: «أتعرف يا إياد، لو التقينا في زمانٍ آخر أو مكانٍ مختلف كنا لنصبح أصدقاء!».

- ما هذا الذي تهذي به؟ كيف لمثلي أن يكون صديقاً لمثلك؟؟
- أنت تمتلك روحاً عزيزة يا إياد، تلمع نضارتها في حدقة عينيك، وتظهر جلية خلف لباسك العسكري ووجهك المتجهم، حتى لكأنني أستطيع لمس النور فيها. هذا بالإضافة إلى أنني لست سفاحاً كما أوهموك!
- أي وهم يا فارس؟ لقد وجدوك في مسرح الجريمة، فلا ريب أنك قاتل، وها أنت تجلس الآن بانتظار الموت المحتم هاهنا... أما الصداقة فكيف لها أن تكون مع جثة وإن كانت لا تزال ناطقة؟! لقد فات الآوان حتى لو كان بالإمكان!
- القصص الحقيقية ترويها الجثث يا إياد، أما التصورات والتخيلات فيخبرها أولئك الصراصير الجبناء الذين عاشوا وهم يراقبون الأحداث من بعيد، يختبئون من عين العاصفة ويتتبعون الحياة تلصصاً.

ينسجون من جبنهم عباءةً سوداء تجعلهم لامرئيين ويأخذون

أقصى الزوايا مرتعاً لهم، يدمجون سوادهم بعتمتها؛ وحين تكون الحركة في بقعة الضوء يتصنعون الحياد درءاً لأي خطر قد يصيبهم واستدراكاً لأي خطأ قد يقومون به، فيعيشون في الظل كالطفيليات دهراً، حتى إذا ما هوى «فارسٌ»، انبثقوا من جحورهم وفتكوا بجراحه، متصنّعين البطولة كغربان تحوم فوق جثةٍ، تظن أن نعيقها صفير نسر جارحٍ!

- ما شاء الله، قاتلٌ و فيلسوف، ألا تجد في الأمر تناقضاً؟!
- وأين التناقض؟
- الفلاسفة عادة ما يتخذون من الخير مسلكاً في بحثهم عن الحقيقة، أما القتلة أمثالك فهم أوعية مُلئت شراً وأضحت أدوات للشيطان بذاته! وهذا ما أعتبره تناقضاً، فهذا اللباس لا يليق بذاك الجسد!
- حتى الشياطين لديها قصص حقيقية يا إياد؛ فالحقيقة غالباً ما تختبئ بحمايتهم في الظلام قبل انجلائها! كما أنني أكرر لك بأنني لست كما تتوهم.
- حسناً، حسناً، أنتَ لستَ كما أتوهم.. أظن أن لديك «حقيقة» ما، لا يعرفها أحد سواك، وقد فاتت جميع المحققين وأنت الوحيد الذي يمكنه أن يخبرني إياها؟! (مع قهقهة عالية).

- بالطبع لدي، لكن رأسك الصغير لن يحتملها، فقد برمجوك لترى وتفكر كما يريدون، صنعوا لك قالباً ووضبوك بداخله. الحقيقة تحتاج إلى أن توسّع زاوية الرؤية لديك لترى الصورة بشكلٍ أوضح فيما يتعدى الإطار الضيق الذي يحيط بك!
- الحقيقة واضحة لا غبار عليها يا فارس، وما يؤكدها هو وجودك في هذا السجن «الجميل»؛ إنني على يقين بذلك، لكن بما أننا سنمضي الساعات القليلة المقبلة معاً، فلا بأس ان نملأ الوقت بهذه القصة «الحقيقية» (مع القهقهة ذاتها).
- أنت تستهزئ الآن، لكن إذا أخبرتك فسيهتز كيانك، وترتعش فرائصك. الحقيقة لها وجوه عديدة، تختلف حسب كيفية النظر إليها، لكننا لا نجدّ في البحث ولا نغيّر من موقعنا بل نختار ما يلائم طمأنينة عقلنا وقلبنا! الحقيقة صعبة وموحشة، لذلك يفضل الناس ألّا يعرفوها ويكتفون بما يفترضونه عنها، مكتفين بالصورة أو الظاهر منها!
- تفضل، لدينا الوقت، أخبرني كلّ شيء، وسأستمع إليك كأنني أسمع هذه القضية للمرة الأولى، متناسياً كل ما أعرفه وكل ما قرأته، وفي النهاية سآخذ وقتي وأحكم!

أرني الصورة الباطنة التي غفل عنها الجميع والتي تدّعي رؤيتها!

- بحيرتك الصغيرة لن تتسع لمياه بحاري يا عزيزي إياد، أخاف على كواسر سواحل رأسك أن تدكها أمواجي الصغيرة!

لذلك، وبعد التفكير مرة أخرى، دعنا من هذا، فربما أنت محق، ومن الأفضل أن تبقى على ذلك الجانب من النهر آمناً في أوهامك، غافلاً عن وجود الضفة الأخرى! لطالما كان الوهم الذي تؤمن به أفضل من الحقيقة التي تزعزع ثقتك!

- إذا كان كل ما أعرفه سراباً كما تدعي، فجميع الناس مقتنعون بهذا السراب. أخبرني الحقيقة المزعومة كيلا تبقى داخل قلبك الذي سينتزع من جسدك عاجلاً وليس آجلاً، أخبرني إذا أردت ألّا تدفن الحقيقة مع بقاياك، أخبرني كي يمضي الوقت سريعاً فإذا كنت صادقاً قتلتَ الوهم، وإن كنت كاذباً قتلت الوقت!

تناول فارس قطعة من الخبز مغمساً إياها في زيت الزيتون وأخذ يمضغها ويفكر، ثم نظر إلى إياد قائلاً:

- حسناً، سأخبرك، لكن عليك أن تعدني بألا تتركني قبل أن أنهي القصة بأكملها، مهما بدت الأحداث متباعدة!

استوى المعاون إياد على كرسيه، اتكأ إلى الخلف، وضع رجليه بعضهما فوق بعض، وأشعل سيجارة من علبة دخان كان «فارس» قد طلبها مع العشاء، وقال:

- أعدك بذلك، سأصغي حتى النهاية..
- حسناً إذاً، اسمع يا إياد....

السيد عابد – «المتدين»

«السيد «عابد».

مربوع القامة، قصيرها، جاحظ العينين، أبيضها أصفر صدئٌ، ذو أنفٍ نسريّ يتكئ على شفتين غليظتين حيث يتصل الذقن بشكلٍ مسطح تقريباً بعنق ثخينة تكاد الدماء تتفجر منها. الكتفان مترهلتان والبطن ممتلئ متدلٍ فوق قدمين قصيرتين، ما يجعله أدنى من الأرض قلباً وقالباً!

احتال السيد عابد على كل تعاريف «الدين» و«التدّين»، وصنع واحداً خاصاً به، يستعمله غيره بلا شك، لكنه تمرّس به وشذبه وهذّبه على هواه، ونسج منه عباءته الإلهية مفصلة تفصيلاً على قياسه ووفق مقاييسه!

فالسيد عابد، المتدين، استدان من السماء علوها وانتحل حصرية التمثيل الأرضي لله، واستدان من إبليسه أساليب الفتك بالفقراء الضعفاء المساكين واستغلالهم، مستفيداً من جهلهم

وسذاجتهم وخوفهم من الغيب، كما أنه استدان من الدين كتبه وشرائعه وأخذ لها من الشيطان التفاسير!!

كان يعدُّ أحد أشد رجال الدين سلطةً ونفوذاً وجبروتاً في المقاطعة، يستمد قوته ونفوذه من عدة خيوطٍ تحيط به، ويحيط نفسه بها:

أسماه والده «عابد» بما يحمله هذا الاسم من خشوع ونبلٍ وورع وتقوى، فكان الاسم خيطه الأول؛

ورث السلطة الروحية عن أبيه، الذي اختفى بصورةٍ غامضة، فكان خيطه الثاني؛

تمرّس وتعمّق في «التدين»، واضعاً قدماً في اللاهوت وأخرى في الشيطنة، فكان خيطه الثالث؛

امتلك الأراضي الشاسعة ساطياً على أموال المعابد والأموال الموقوفة، فكان خيطه الرابع؛

أتم عقد زواج ابن اخيه، زياد، على ابنة فؤاد باشا، فكان خيطه الخامس.

خمسة خيوط، شرنقة واحـدة، عنكبوت واحـد، السيد «عابد»!»

- إياد: لماذا تخبرني عن السيد عابد؟ وما شأن هذا بقضيتنا؟
- ألم تقلِ إنك ستصبر حتى النهاية؟ أجابه فارس.

- حسناً، حسناً... اكمل!
- كان السيد عابد يمسك مفاتيح الآخرة بين يديه، يطقطق بها للناس فيخرّوا ساجدين عند قدميه «لبيك.. لبيك»، وذلك لا ببأس وحنكة وشدة منه فقط، بل لجهلٍ ما زال يستعر تحت الرماد منذ عهد قديم إلى يومنا هذا! ويبدو أنه سيستمر طويلاً.

بعد أن أصبح رجل الدين الأول في المقاطعة، ازداد نفوذه واطرد، لكنه أراد توطيد سلطته السماوية بسلطانٍ دنيوي، وما أفضل من زواج ابن أخيه، زياد، من ليلى ابنة فؤاد باشا! فهذا الزواج يعني ارتباطاً عضوياً بين الدين والسياسة، ولا شك بأن المولود سيكون نوعاً حديثاً من الشياطين!!

عُقدت الصفقة، وضعت البنود، حسبت الفائدة المشتركة والنتائج المتوقعة، رُتّبت أمور الزواج مع فؤاد باشا، وتزوجت ليلى بزياد (وليس زياد بليلى)، وعمّت الأفراح لعدة أيام في أرجاء المقاطعة، وقُدمت القرابين على مذبح هذا الزواج!

كان عرساً عظيماً بل أشبه باحتفالات النصر، أو مهرجانات الأعياد. نُحرت الخراف، حُضِّرت المناسف ومـدّت على طاولات تكاد لا تنتهي، أكل الفقراء المساكين من لحمها ابتهاجاً

وهم غافلون أن لحمهم هو الهدف الأساسي من هذه المسرحية «المباركة»!!

أكلوا كثيراً، وبين لقمةٍ وأخرى كانوا يباركون هذا الزواج بصلواتهم وأدعيتهم التي كانوا يرفعونها ابتهالاً في المعبد الخطأ!

بدأت نتائج الزواج تظهر مع الوقت، فإلباس السياسة ثوباً دينياً كانت له فوائده في المجتمع «المتطور»، كما أن تغطية يدي الدين بكفوفٍ سياسية أدّى إلى بعث الحرارة في كامل جسد السيد عابد... جسده الممتد!

بعد سنتين من الزواج، ومع ردف المصالح بالمصاهرة، أضحى السيد عابد سيفاً ذا حدين: فما لا يستطيع فعله بوعيد وتهديد وإرهاب موقعه الديني، يحصل عليه بنفوذ فؤاد باشا. وفي الوقت ذاته كان الزواج رابحاً بالنسبة إلى فؤاد باشا، فمزج الدين بالسياسة كانت له فوائد جمة بحيث أغدق نوعاً من «المباركة السماوية» على عباءته الإقطاعية!

إياد: قصة غريبة، لكن إذا سلمنا جدلاً بما تقوله، فلماذا زوّج ابن أخيه ولم يتزوج هو نفسه بليلى؟ فهكذا ستكون العلاقة أمتن والروابط أرسخ!

- الأسباب كثيرة، فليلى لن تقبل الزواج برجل يكبرها بعقدين، كما لن تقبل بزوج صارم يتحكم بها وهي

المعتادة «الدلال»؛ ومن الناحية المقابلة فالسيد عابد لن يتزوج بمطلقة، كما أنه كرجل دين فقد نذر نفسه لله – على عيون العالم – بالرغم من أنه كان «يتزوج» عدّة مرات في اليوم الواحد، خصوصاً أنه كان مشهوراً بطرد «الشياطين» من أجساد النساء – حصراً – ذلك الطرد الذي يبدأ بشفاههن ولا ينتهي إلا أسفل بطونهن!!

- وكيف لك أن تعرف كل ذلك، من أين تستقي هذه المعلومات؟؟!
- أنا، كما تعرف، كنت اليد اليمنى لشوقي آغا، وكانت وظيفتنا تقتضي بأن نكون على علمٍ بكل التفاصيل (يعني الشاردة قبل الـواردة)، كنا نجمع المعلومات، والوثائق والصور لكل شخصية نافذة من أجل تكوين ملف «خاص»، وهذا الملف يُترك لوقت الحاجة إليه، ويستعمل، حسب الضرورة، لابتزاز هذه الشخصية أو التشهير بتلك حسبما تقتضي المصلحة!
- مصلحة من؟
- لو سألتني هذا السؤال في ذلك الحين، لقلت لك من أجل مصلحة النظام القائم، وأمن الدولة. أما اليوم فأنا مدرك تماماً أنها كانت لمصالح شخصية بحتة!

- أها!.. «الشغل الوسخ» .. حسناً... أكمل..
- في أحد الأيام استدعاني شوقي آغا إلى مكتبه، استعرض أمامي الصحيفة السوداء للسيد عابد، صحيفة تفحّ بأبشع الروائح وأكثرها نتانة...

كانت بعض المعلومات معروفة لديَّ بطبيعة الحال وبعضها الآخر كان جديداً؛ فالسيد عابد كان خفاش ليلٍ بامتياز: امتهن الابتزاز، والاستغلال، والإذلال والاغتصاب، والسرقة والنصب وتجميع الثروات وكل ذلك بمباركة إلهية مفترضة ومفروضة على من يقع الفعل عليهم!

مئات النساء كان يبتزهن أو يوهمهن بطرد الشياطين من أجسادهن، وتطهيرها من الرجس والدنس، وكل ذلك لإشباع رغباته وغرائزه الحيوانية.

مساعدات «أسرى الحرب»، «جرحى الحرب»، مساعدات أبناء الشهداء، مال الأوقاف، الهبات الخارجية، المساعدات الدولية... كلها كان يلهفها لهفاً! (بالطبع اكتشف فيما بعد أنه كان يتقاسمها مع فؤاد باشا! وهذا أغفله شوقي آغا في حديثه).

بعد هذا العرض أبلغني شوقي آغا أن قرار إطفاء شمعة السيد عابد قد صدر، وبأنه يجب علينا أن نرسم خطة محبوكة، لا تثير الشبهات ولا تفاجئ الرأي العام، وكان يجب علينا أن نغلف موته

بستار فضائحي يحول أنظار الناس عن الموت نفسه كحدث، إلى العار المسبب للموت، وبذلك ينشغل العامة بالفضيحة ويتناسون فعل الموت ذاته! وأنهى حديثه قائلاً: «فؤاد باشا بسلّم عليك، وبقلك أنت نمر متل بيّك!».

كان فؤاد باشا قد ارتأى بأن حياة السيد عابد قد طالت! ولا بد من تسهيل طريقه إلى الفناء، بطريقةٍ تشهيرية، تعري الجانب المظلم منه بآثامه وعيوبه، لتهدم أي بقعة بيضاء في ماضيه ولتخفف من وطأة موته تفادياً لأي ارتداد سلبي داخل المقاطعة بحيث يفرح الناس لموته ولا يتساءلون!

- إذاً، وحسب ما تقوله الآن، ففؤاد باشا قرر أن يقتل السيد عابد، عم صهره، وشريكه!!! ما هذه التفاهات؟!! السيد عابد قتله ابن الأرملة، وهذه القصة معروفة وقد كُشفت في حينها.
- هي تفاهات بعقول الطيبين الصالحين والناس العاديين، وأولئك الذي يعيشون بعيداً عن مستنقعات المال والسلطة. لكن في هذا العالم يا صديقي هكذا تحاك الدسائس وتنفذ الخطط.
- لا تقل لي صديقي مجدداً!

- حسناً، لكن في النهاية أنت ستقلها لي! إني أراهنك على ذلك!
- أكمل ما تقول، فلا وقت لصرف الرهانات!
- كنا نعرف من خلال مراقبتنا له وبواسطة «أعيننا» في الشوارع، أنه يزور أرملة في أحد الشوارع الفرعية مرة في الشهر ليل الأربعاء قبيل منتصف الليل، وكان المكان مناسباً من الناحية الأمنية، بعيداً عن الازدحام وأعين الفضوليين ومضللاً بغابة من الأشجار المتنوعة التي تتيح إمكانية التسلل والمراقبة، فوضعنا الخطة بناءً على هذه المعلومات، وعلى الصور التي نملكها، والخرائط التي بحوزتنا واتفقنا على استطلاع الموقع واعتبار العملية سارية المفعول والتنفيذ في أقرب فرصة متاحة!

بعد فترة من الاستطلاع الميداني، والكشف على المنزل وغرفه، ومعرفة المداخل والمخارج ومراقبة حركة الشارع... تسللت إلى حديقة المنزل - وهو منزل قديم البناء، حيطانه من الحجر المقصب، مطعّمة بالنوافذ الخشبية، تحمل على أكتافها قرميداً أحمر - مكثت في إحدى الزوايا المظلمة، مستفيداً من شجرة ضخمة قد أحالت نهار الزاوية إلى ليل، فكيف بليلها!

كنت أستطيع رؤية المدخل بشكل واضح، فجلست أنتظره ريثما يأتي، وفي الوقت المحدد «وصل صاحبنا» على الموعد!

- إياد: إذاً جلست في الزاوية كالصراصير التي ذكرتها قبل قليل (مع ضحكة لئيمة).
- فـارس: بل كالفهد الـذي يتربص بفريسته ويستعد للانقضاض على نضارتها!
- إياد: (ممتعضاً) حسناً أكمل!

منحتهما نصف ساعة من الوقت تقريباً ليستويا بعضهما مع بعض! ومن ثم فتحت الباب الخلفي ودخلت المنزل، مررت بالمطبخ إلى الرواق واتجهت إلى غرفة النوم، كان الباب مفتوحاً قليلاً، ضوءٌ خفيفٌ بجانب السرير يظهرهما يتبادلان الأجساد...

صفرت «صفرة» صغيرة فجفل كلاهما، وقفز السيد عابد مذعوراً يصرخ: «من هذا؟ من هناك؟!» فعاجلته برصاصةٍ في رأسه أخرسته إلى الأبد وأخرى بصدره.

شهقت الأرملة خوفاً فبددت خوفها بأربع رصاصات بين حاجبها الأيمن وصدرها، فمال جسدها على حافة السرير وسقطت يدها على وجه السيد عابد لكأنها تستوقفه ليعبرا معاً من الـ«هنا» نحو الـ«هناك»! في مشهد ولادة جديدة، وللسخرية من دون ثياب أيضاً!

وزعت عدّة طلقات بينهما والسرير والحائط، وأبقيت على رصاصة واحدة في المسدس.

فككت كاتم الصوت وغادرت إلى شارع «البسطاء» حيث كان يعمل ابن الأرملة مع زوج خالته وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة، كان ينهي عمله عند الثانية والنصف ليلاً ويعود إلى منزله سيراً على الأقدام.

انتظرته ريثما انتهى من عمله وسرت وراءه بالسيارة إلى أن ترك رصيف الشارع الرئيسي ودخل في أحد الأزقة، توقفت بجانبه، وطلبت منه الصعود بجانبي بعد أن أريته بطاقتي الأمنية وتوجهنا نحو مكانٍ شبه مهجور على الشاطئ الغربي.

حين وصلنا، ترجلنا من السيارة وسرنا على الشاطئ الصخري قليلاً ثم طرحته أرضـاً، جثوت بركبتي فوق صدره، وضعت المسدس في فمه وأطلقت النار.. تركت المسدس بجانب كتفه اليمنى بعد أن دمغته ببصماته وعدت إلى المنزل.

أرسلت رسالة قصيرة إلى شوقي آغا: «قطفنا التفاح الأخضر والأحمر وتركنا السلة أسفل الشجرة»!

انتفض إياد عن كرسيه مرتعشاً، وضرب على الطاولة مزمجراً بوجه فارس:

- أنت مجرمٌ مريضٌ حقيرٌ.... كيف لك أن تقتل طفلاً بهذه

البرودة؟! من أعطاك الحق بذلك؟ ما ذنب الولد البريء في هذه المعمعة؟!!

تراجع فارس قليلاً إلى الخلف، مبتعداً بوجهه عن أنفاس إياد:

- نعم، أنت محق، لقد كنت مريضاً، كنت حقيراً، لكنني كنت أنفذ الخطة بحذافيرها، وكان موت الولد خاتمتها. لكنني لاحقاً شفيت من مرضي وارتقيت من مستنقع حقارتي وتبت عن هذه الأفعال بما قمت به، وكفّرت عن كل خطيئة.
- لا توبة عند القتل! فكيف إذا كان قتلاً من غير سبب، وزهق أرواحاً بريئة.
- أنا لم أقتل! لقد كنت أنفذ الأوامر، كنت الوسيلة لتحقيق الغاية، الرصاص للمسدس أو السيف للسيّاف. كنت القبضة، لكن المحرّض والمحرك كان يقبع في مكان آخر! فلا ذنب لي بما قرره غيري ونفذته أنا!
- أنت تضحك على نفسك يا فارس، فربما باستطاعتك التلاعب بالكلمات هنا، لكنك لا تستطيع التلاعب بها بهذا الشكل في محكمة السماء!
- سنرى ذلك، يوماً ما، ليس باستطاعتك أنت أو أي إنسان

آخر أن تحكموا عليّ هناك؛ فالسماء لها تدابيرها الخاصة التي لا يعرفها أحدكم!

***

في صباح اليوم التالي، عنونت الجرائد بالمانشيت العريض: «فتىً يجد أمه مع السيد عابد في وضع مشتبه فيه، فيقتلهما وينتحر!».

انشغلت الصحف والمواقع الإخبارية والصالونات «الراقية» بهذه الفضيحة بينما كان فؤاد باشا يصارع «ألمه» ويترفع عن أحزانه وينصّب صهره زياد مكان عمه المقتول، مستولياً على السلطة الروحية والمكتسبات المادية التي جمعها السيد عابد.

بالطبع ما كان ليحصل ذلك لولا سهولة السيطرة على زياد المسكين بواسطة زوجته ليلى.

مسكينٌ السيد عابد، ظنّ أنه يستطيع اللهو مع السماء فاحتضنته الأرض مدرّجاً بدمه وعاره، ظنّ أنه محصّن بحجاب فأثبت الرصاص سوء ظنّه!

***

- إياد: لم أكن أعرف هذه القصة الغريبة، رغم أن بعض الإشاعات قد سرت بعد سنتين أن قضية قتل الولد للسيد

عابد ومن ثم الانتحار كانت ملفقة ومكتوبة في غياهب المكاتب الأمنية لكن..

قاطعه فارس قائلاً:

- «لكن» هذه سأرويها لك فيما سيأتي إذا أردت أن تعرف الحقيقة كاملة!
- نعم، نعم أخبرني.. (ووضع قدمه اليمنى على الأرض وانحنى قليلاً باتجاهي).

***

ليس هناك من لذة تضاهي لذة المعرفة وإشباع فضول الإنسان!! فتراه يدبدب فيه ذلك الشعور بالعظمة، يحك نرجسيته راسماً تلك النظرة على وجهه والبسمة على ثغره بأنه يعلم! يعلم ما يجهله غيره، ويمتلك إحساس من يقبض على الحقيقة من عنقها! يستأثر به شغف معرفة أقدار الناس فتراه يحوّل كل طاقته إلى سمعه كي لا يفوته حرف مما يقال، أو تسقط كلمة مما يروى!

وهذا الشعور يحيلنا للتشبّع بالغرور، والإحساس بقدرة المعرفة، لكن مهلاً! أوَليست معظم المعتقدات قد قامت على هذا المبدأ؟! مبدأ من يعرف أكثر عن شيء ما، أو شخص ما أو فكرةٍ ما؟!

لنتابع...

الليلة الخريفية

الخريف...

ذلك المتصوّف الشاحب..

ينسج من أوراق دفتره الصفراء عباءةً يهديها إلى معشوقته الأرض غيرةً من صيف حار لهّاب قد أفل، وخوفاً عليها من شتاء بارد الأنامل بدأ يستعد للقدوم، لكأنه يعلم بأنه سيحضر ثوب الزفاف لعروسته، فيسجل موقفه، يقدّم هديته، وينسحب ورقاً متطايراً أمام هيجان رياح أخيه.

كانت الساعة تقارب التاسعة مساءً، وكان فارس في بيت الجبل، يجلس على الشرفة الغربية، يرتشف فنجاناً من القهوة السوداء ويمضغ دخان السجائر.

كان قد أنهى إحدى المهمات الصعبة وذهب ليرتاح بعد أن نال ثناء وإعجاب وتهنئة شوقي آغا؛ ففارس كان قاتلاً صامتاً بامتياز، لم يفشل في أي مهمة أوكلت إليه، وكان دائماً ما يضع

الخطة المناسبة للعمليات مهما كانت صعوبتها وتعقيداتها، لكأنه ولد سفاحاً والقتل فطرته!

كانت ليلةً ساحرةً من ليالي تشرين الأول؛ فالهواء معتدل البرودة ونسائمه تعبر بين الأضلع من حينٍ إلى حين، السماء تتخللها غيومٌ قليلة بانت أطرافها بضوء أزرق، الغابات اصفرّت وها هو لونها البرونزي يتراقص تحت ضوء القمر، الصمت الناعم تخرقه بعض أصوات الطبيعة، فهنا الريح تحاور الشجر حفيفاً، وهناك ذئب يتلو صلاة البراري، لكن في البعيد كانت الغيوم السوداء تتشكل بكآبة راسمةً وجه خفاش ما، أو هكذا تراءى له!

رنّ هاتف فارس، فتناوله من على الطاولة الصغيرة؛ هناك رسالتان في صندوق الوارد.

فتح الرسالة الأولى فإذ هي صورة عارية لـ«همسة»، قفز الهاتف من يده، بدأ جسمه يهتّز، وأسنانه تصرصر، أخذ نفساً عميقاً محاولاً قمع الغضب من الوصول إلى دماغه، نظر إلى السماء، إلى ذلك الفراغ اللامتناهي، وبدأ يردد لاإرادياً، ومنذ زمنٍ بعيد، «يا الله... يا الله».

- إياد: من هي «همسة» هذه؟
- «همسة» كانت إحدى قريباتي البعيدات، لكنها كانت أيضاً حبي الصامت الذي ما عرفه مخلوق غيرنا!! ذلك

الحب المستحيل الذي أخفيناه عن عيون الناس وتكاشفنا به خلسةً لسنوات مضت. همسة كانت البيت الغزلي في مرثاة حياتي، الضوء الوحيد في الظلام الدامس الذي ما فتئ يتآكلني يوماً بعد يوم!

- ولماذا أرسلت إليك صورتها عارية؟
- لم تكن هي المرسلة، كانت الرسالة مرسلة من موقع إلكتروني إلى هاتفي، وكذلك كانت الرسالة الثانية!
- ما فحوى الرسالة الثانية؟
- كانت الرسالة تقول: «التقط هذه الصورة سميح آغا في جلسة خاصة»!
- سميح آغا! بدأت بتضييعي! لم أفهم!
- لكنني فهمت. انتبه جيداً، فمن أرسل الرسالة يعرف الحب الذي يجمعني و«همسة» من جهة ويعرف من التقط الصورة من جهة أخرى، ولكن من؟!!
- من ولماذا؟
- «لماذا» جوابها سهل يا إياد.. أمّا الـ«من» فهذه كانت الحلقة الصعبة!!

همّ إياد بالاستفسار، لكن فارس أشار إليه بيده وتابع:

- أمسكت الهاتف وطلبت رقم «همسة»، لكن هاتفها كان

خارج الخدمة، دخلت إلى المنزل، قمت بتغيير ثيابي بسرعة البرق، أخذت مسدسي ومفاتيح السيارة قاصداً وسط المقاطعة، فقد كنت أخشى ما أعرف أنه قد يحصل.

اتجهت إلى مركز المقاطعة بسرعة جنونية. في الطريق، تابعت محاولاتي كي أكلمها لكن دون نتيجة، فقررت أن أتوجه إلى منزلها فقد أجدها أو أجد خبراً عنها، فوصلت رسالة أخرى:

« قتلها... أستطيع مساعدتك... لا تتسرع».

***

توقف فارس على كتف الطريق محاولاً استيعاب الذي يحصل، فهو يدرك جيداً خطورة الغضب والتسرع، وقد تدرّب طويلاً على الهدوء والصبر والتأني. أعاد قراءة الرسالتين مراراً فربما قد فاته شيء ما، أو علّه يرى ما بعد الكلمات، لكن كل ذلك كان من دون جدوى.

- «بدأت الأفكار تتجاذبني والخواطر تهدر بداخلي. تفجرّت الأسئلة من كل شريان في دماغي. من هذا الذي يرسل الرسائل إليّ؟ ما الذي يريده مني؟ هل فعلاً قتل سميح همسة؟ أأذهب للبحث عنه؟ أأقتله؟ أيمكن أن يكون هذا فخاً؟ أيمكن أن تكون مزحةً سيئة؟ أيمكن أن يكون هذا اختباراً؟

أغمضت عيني، وأخذت أحاول تعديل طريقة تنفسي لتصبح أعمق وأطول، محاولاً تخفيض سرعة دقات قلبي وإعادة الهدوء إلى روحي كي أعي التصرف الصحيح في هذا الموقف. بدأت أراجع ما أعرفه من معلومات، وبينما أنا غارق في تساؤلاتي وتحليلاتي هاتفني شوقي آغا طالباً أن ألقاه في المركز الأمني على وجه السرعة لأمرٍ خطير جداً.

أدرت مفاتيح السيارة وتوجهت إلى المركز، لكن الاتصال أحدث أسئلة جديدة في داخلي! أيكون سميح قد قتل همسة بالفعل وأعلم شوقي آغا بهذا؟ هل يخاف شوقي آغا أن أقتل أخاه إذا عرفت؟ أيستدعيني ليقتلني؟ لكن مهلاً! لا أحد يعرف علاقتي بهمسة، فلماذا أقلق! عليّ التركيز، ثم تلك الرسالة بألا أتسرع.. رأسي سينفجر».

وصل فارس إلى المركز على وجه السرعة وتوجه إلى مكتب شوقي آغا مباشرةً، ففاجأه هذا الأخير قائلاً:

- «لقد وجدوا جثة مرميةً بجانب الطريق الجبلي قد شوهتها الكلاب ويبدو من معالمها أنها لقريبتك «همسة». لم يتضح ما جرى إلى الآن، لكننا سنبدأ التحقيقات فور صدور تقرير الطبيب الشرعي، وسأحرص شخصياً على

الاقتصاص من القاتل. عد إلى منزلك الآن وسأبقيك مطلعاً على المستجدات».

كان الارتباك يظهر في حركات أصابع شوقي آغا، وفي تلك الرجفة البسيطة لشفتيه وهو يتكلم، رغم صوته الواثق ونظرته الثاقبة وجمود جفونه، وهذا ما استطاع فارس أن يلتقطه بسهولة فدمدم بداخله «لقد قتلها أخوه وابن الزانية هذا يزفّ لي الخبر!!».

- فارس: أريد المشاركة في التحقيقات!
- شوقي: لا أستطيع السماح لك بذلك، فهمسة قريبتك، ولن تتصرف بعقلانية وموضوعية. لكن لا تقلق، سنجلب القاتل إلى هنا ويمكنك التصرف به كما تشاء!
- كنت متداركاً لأعصابي، فأجبت بالإيجاب وباقتضاب كعادتي. لقد تعلّمت في حياتي ومن خلال التدريبات المكثفة أن أبقى هادئاً، أن أقلّب الأمور على نارٍ هادئة، ألا أُستفز وألا أستعجل الكلام. الجاني واضح، لكن الجريمة ذاتها معقدة. عليّ التريّث، فهذا الضباب لا بد أن ينجلي!

غادرت المركز، وصلتني رسالة أخرى: «إذا أردت افتراس العصفور فعليك بإزالة قفصه». الرسالة كانت واضحة، مباشرة ولا تحتمل عديد التفسيرات!

***

عاد فارس إلى منزله في تلك الليلة وروحـه تنزف، لم يشعر بهذا الضعف في حياته كلها. شياطين الدنيا كلها كانت قد تعازمت وبدأت تقيم حلقات الرقص داخله، أفكار جهنمية كانت تراوده، ملونة بالأحمر القاني، مرسومة بخرائط تسندها جماجم وسكاكين، وجرح يعتصر في القلب.

«وصلت المنزل، اتجهت إلى القبو، أخذت قنينة نبيذ أحمر، كنت أظنني سأشربها في مناسبةٍ سعيدة، وخرجت إلى الغابة القريبة».

مشى، مشى ومشى مخترقاً الغابة الصنوبرية، في يده قنينة نبيذ تتراقص مع ميلان جسده المتعب، لكأن الوهن قد ثار بركانه فجأة فاندفعت الحمم إلى الأطراف فشلّتها، وأضعفتها فترنّحت وماجت. الصدر يعزف نوتات حزينة، تخرجها الحنجرة دمدمةً شجيةّ، إلى أن وصل إلى حافة جرفٍ صخري يتعالى فوق الوادي.

وجه القمر يرتسم على المياه الجارية عند قدمي الجرف، فيتلاعب تدفق الماء بالصورة كما يشاء ويعيد تشكيلها، ووجه همسة يرتسم في مقلتَيّ فارس ويغادرهما دمعةً دمعةّ. صرخ باسمها بأعلى صوته فلم يلقَ جواباً.. ولو صدى.

أفرغ حسرته في الهواء وحمّل الأثير أنينه وافترش الأرض محدقاً إلى السماء بين النجوم، في البقعة السوداء من اللاشيء،

وناجاها إلى أن غار الصوت في الحنجرة وتوقفت الأطراف عن الارتعاش.

«بكيت كما لم أبكِ يوماً، كأني كنت أوفّر هذه الدموع في حياتي لأصرفها في فاجعةٍ كهذه... بكيت حتى جفّ بياض العينين واستحال رمادياً».

في خضم ذلك الحزن، بدأ يتصاعد من ظلّ فارس بخارٌ ما، لكنه قاتم أقرب إلى الدخان، وبدأ يتشكل أمامه مخلوق هوائي، يشابهه في الصورة.

تابع «الشيء» التشكل ساحباً ما تبقى من ظل فارس على الأرض مشكلاً آخر الأطراف، وجلس قبالته مبتسماً! كان نسخة طبق الأصل عن فارس لكن بقرنين صغيرين!

تقهقر فارس قليلاً إلى الوراء مرتعباً من اختفاء ظلّه، وزجر «الشيء» أمامه قائلاً:

- من أنت؟
- أنا أنت! لكن يمكنك أن تدعوني «سراف».
- أوضح.
- أنا ظلك ودليلك ومرشدك الروحي!
- أنت شيطان!
- أحب أن أدعو نفسي ملاكاً وقد فقد جناحيه!

- ما الذي تريده مني؟
- لا أريد شيئاً، أنا معجب بك، فأردت اتخاذ شكلك تقديراً لأفعالك الماضية، وإنجازاتك العظيمة في خدمة ظلال الشر! فأنت أسطورة حيّة في الجانب الأدكن من العالم، وأفعالك أناشيد نعلمها لصغار الأبالسة لتنشدها في حفلات الشر ومؤتمرات الظلام!
- أغرب عن وجهي، أنت وهم تافه وليس لي شأن بك!
- لا لست وهماً، أنا حقيقة مثلك، وإني أقدم منك بعصور، وما أنت إلا تلميذ صغير يجري في أروقة قتامتي. تذكر كل منعطف في حياتك، كل مهمة أتممتها بنجاح، كل فكرة خطرت ببالك وقال أصحابك إنها «شيطانية» وستجدني حاضراً فيها، موشوشاً لك بها. لكنني لست هنا لأتحدث عما فات بل إنني أتيت لأرفدك بالعزم الأسود، والمقت الكاحل لتنتقم شرّ انتقام!
- حسناً، أخبرني يا سـراف، ما الذي يجري؟ من قتل «همسة»؟
- كنت أتمنى لو كان بإمكاني أخبارك ، لكن الأمور لا تجري على هذا المنوال، فهناك قانون أعلى مني يحكم العالم ولذلك عليك أنت أن تعرف القصة، أنا هنا لأشد

على يدك فقط؛ فدماء الانتقام عزيزة عندي لامتلاكها لذة لا تضاهيها لذة! كأنها نوع من النبيذ المعتق منذ عقود. والانتقام إذا ما بدأ فلن ينتهي، فيصبح لدينا نبع دماء جديد نشرب منه، نحن معشر الشياطين، من دون أن ينضب ومن غير أن نرتوي!!

- هذا يعني أنك بدون فائدة إذن، «انقلع» من هنا.

أخذ «سراف» يجول فوق حافة الجرف جاعلاً من الهواء مدعساً لقدميه، ونظر إلى فارس قائلاً:

- ستتكشف فائدتي مع الوقت، ستراني في الظلال أواكبك، فما أنت مقبل عليه يستحق ملاحقتي العملية! لا تنسَ الدماء يا فارس، أكثر منها فنحن نحتاج إليها... (قهقه وطار صوب فارس ملتصقاً بجسده منغمساً فيه، ظلاً).

ذعر فارس وانتفض واقفاً ينظر حوله «لا بد أن النبيذ أخذ مفعوله وبدأت بالهذيان» تمتم، وأكمل يعبّ من القنينة إلى أن استنفدها واستنفد كل آهاته معها، فغفا منهكاً على كتف ذلك الليل.

- إياد: لم أكن أتوقّع أنك تمتلك إحساساً يدفعك للبكاء كباقي البشر؟! يبدو أن هذا الإحساس قد دفعك للهذيان

أيضاً، ما قلت اسمه؟ «سـراف» (وانفجرت ضحكة المعاون إياد)..

- وأنا لم أكن أعرف أنني مثل البشر إلى أن انكسر خاطري وفقدت المرأة الوحيدة التي تخاطبنا بالأرواح متخطين كل مظهر جسدي قد تريه لك عيناك!

لم أكن لأتخيل أن خسارتها بهذه الصعوبة والمشقة، تهشمت روحي وأصاب التصدّع قلبي. ذلك القلب الذي لم يكن يحوي سواها تشظى قطعاً صغيرة دفنتها معها في اليوم التالي. أما روحي فقد أخذت همسة قطعةً كبيرة منها معها، وتركت لي ما يكفيني للانتقام!

أما «سراف» فظننته وهماً وهذياناً، لكنني لاحقاً وجدته شيئاً آخرا! ستعرف عنه في حينه!

- جيد، دعنا منه الآن، وأنا أعتقد أن عليك أن تفرح، فأقلّه سيكون شيء منك في الجنة، لأنك بالتأكيد ستقلّب على جمر جهنم (مع ضحكة استهزائية)..
- ربما يا إياد، ربما.. لكن في تلك الليلة، دفنت آلامي واستنفدت أحاسيسي وانتهيت من كل شعورٍ إنساني قد أحسست به يوماً ولو عرضاً، تخلصت من بقايا مفاهيم الرحمة والعفو، استدعيت ظلام الكره والانتقام،

وأستبقيتها على مائدة دمائي، ترفدها بالأسود كلما ارمدّ لونها.

وعدت روح همسة بأنني سأمزق من شارك بقتلها وأنتزع أرواحهم ولو كان هذا جلّ ما سأقوم به فيما تبقى لي من هذه الحياة!

- إياد: لماذا أخذت الأمر على عاتقك؟ لماذا لم تتوجه إلى الشرطة والقضاء؟ كان يمكنك أن تريهم الرسائل وتدع العدالة تأخذ مجراها!
- فارس: دعنا لا نتغابى هذا المساء؛ فالعدالة كلمة قالها أحد الأغبياء فتلقفها ضعفاء هذه المقاطعة، وهي كمفهوم وجدت لتطبّق على الفقراء والمساكين والمعدمين، أولئك الذين لا يمتلكون حيلة، وليس لهم درع تحميهم أو واسطة أو «ظهر» سياسي. أمّا الأقوياء، الأثرياء وأصحاب النفوذ فلا يمكن المسّ بهم أو الاقتراب منهم! حتى يمكننا القول إن العدالة عندنا تعني اقتصاص الأقوياء لما يبغونه وترك الفضلات للفقراء والمساكين!
- حسناً، أنت محق إلى حد ما!

شوقي آغا

«لو تجسد الظلام رجلاً... لكان شوقي آغا!!

في أوائل عقده الخامس، طويل القامة، عريض المنكبين، شعره عسكري قصير ثلّمه بعض البياض، كان يلبس بدلة سوداء وقميصاً أسود على الدوام لكأنها جزء من لون ذاته أو انعكاس لقتامة روحه!

ثاقب النظرات، حاد الملاحظة، شكّاك، لا يثق إلا بقلّة قليلة من رجاله، أضاع الرحمة منذ زمن ليكون اليد الحديدية التي يضرب بها فؤاد باشا، والده.

ارتقى المناصب بسرعةٍ جنونية، وصحيح أن «الواسطة» والإرث العائلي قد فعلا فعليهما، لكن ذكاءه ساعده في الترقيات، وشخصيته الفذّة أسعفته في الحفاظ على المكتسبات، أما خبثه وظلمه فقد شكلا هالةً من الرهبة والخوف من حوله؛ فالجميع كانوا يهابونه لأنهم يعرفون قلبه الأسود وبطشه وغدره، فتسيّد وساد، وكان أمره مقضياً وخاطره لا يُكسر ورجاؤه لا يخيب!».

- إياد: لكنك كنت مساعده؟! فأنت مثله إذاً؟! لأن الطيور على أشكالها تقع!
- فارس: لا شك بأنني كنت مثله، بل أسوأ منه! فإذا كان هو اليد التي يضرب فؤاد باشا بها، فأنا كنت المطرقة في تلك اليد! وبتلك المطرقة حطّم جميع أعدائه وسحق جميع خصومه، وذلّ كل من تجرأ ووقف في وجهه أو في وجه أحد أفراد عائلته! بتلك المطرقة ذلّ الحر وأبقى العبيد، سحق الكريم وأبقى الصعاليك، مسح الناسك وأبقى الدجالين، فكل من شكّل خطراً على تلك العائلة أو على سلطتها وتحكمها، خطفت روحه من جسده طوال عشرين عاماً!

كيف أصبحت هذه «المطرقة»؟ ما الذي أوصلك لتخدم إرادة شوقي آغا؟!

- كان والداي يعملان في قصر فؤاد باشا، والدي كان مسؤول الحرس وأمي مدبّرة للقصر. كنا نسكن بجوارهم، في أحد بيوت الموظفين رفيعي الشأن بالنسبة إلى القصر! أنهيت دراستي الثانوية ولم أكن أرغب في متابعة التعليم الجامعي، فقد انطبعت منذ صغري عبارة والدي في دماغي «بكرا بتكبر وبتاخذ مطرحي»!

أخذني والدي عند فؤاد باشا، فأرسلني عند شوقي آغا مع توصية، ظننت وقتذاك أن التدريب العسكري وكذلك الأمني سيساعداننني لاستلام أمن القصر، فانكببت على التدريب بإصرار وعزم لا مثيل لهما!

بعد سنتين من التدريب والدورات الخاصة برزت بين جميع أقراني وتفوقت عليهم جميعاً، فاختارني شوقي آغا لأكون ضمن فرقته الخاصة، وترقّيت كلما ترقّى ولاحقاً اكتسبت ثقته، وأصبح يعهد إليّ بجميع المهمات «المقدسة» التي تحتاج دقّة في التنفيذ، سرعةً في الإنجاز وصمتاً في الكلام!

***

غفت «همسة» في كفنها، حضر المأتم بعض الأقارب وبعض الأصدقاء، مرّ جثمانها صامتاً ما بين دمعة أم، وقلة حيلة أب، وغضب أخ ولوعة أخت، وتصميم فارس!

ووري الجثمان الثرى في المقبرة المركزية للمقاطعة! بلا ضجيج، كحال كل مساكين بلادي...

- إياد: حسناً، ماذا جرى بعد دفن «همسة»؟
- بعد الدفن أصررت على المشاركة في التحقيق مجدداً، لكن شوقي آغا كان قد أعدّ لي ترتيبات أخرى؛ فبعد أسبوع أرسلني في دورة عسكرية إلى إحدى مقاطعات

البحر الميت لمدّة ستة أشهر وذلك لأنه كان يريد إيجاد وتدبّر المخرج المناسب لأخيه من جهة، وتلافي معرفتي للتفاصيل من جهة أخرى تداركاً لمصيبة قد تحدث!

- أتعني بالمخرج تلك القصة حيث قُتل «القاتل» بعد فراره، وكانوا قد وجدوا اعترافه بقتله لـ«همسة» في دفتر يومياته؟
- صحيح، هذه الرواية التي تناقلتها الجرائد لإلهاء عامة الشعب وما يدعى «الرأي العام»، وإقفال أبواق البعض الآخر عبر الحدود، لكن ما هذا المجرم العبقري الذي يكتب ما يدينه في دفتر يومياته؟!!.. قلّ لي
- من الممكن أن يكون مريضاً نفسياً، أو لديه هوس من نوع ما، فيقوم بذلك!
- لا، لم يكن كذلك، ولأزيدك من الشعر بيتاً، فإننا نصنع من هذا الهوس شمّاعة كلما أردنا إلباس تهمةٍ لأحدهم!
- غير معقول!
- معقول جداً، فقد فعلتها بنفسي عدة مرات!
- طيب، ماذا فعلت حين تلقيت الخبر؟
- كنتُ تلك الليلة أجلس على شاطئ البحر الميت، أعطيه من حزني فيعطيني من اسمه وأتسابق وإياه من سيشمل من الآخر أولاً..

كان «سراف» يتنقل بخفة على سطح الماء، يذكرني بحوادث مضت، وبأفكار أوحاها إليّ سابقاً! يذكرني بالانتقام لكأنه غاب عني لحظةً!

هاتفني شوقي آغا وزفّ لي الخبر السعيد «عثرنا على القاتل، ونفذنا حكم القدر فيه.. «شكرته وأغلقت الخط».

***

كان فارس يعرف أن القصة ملفقة وأن شوقي آغا يريد إسكات غضبه بدم قاتلٍ مفترض لترتاح أساريره، لكن إدراك فارس لذلك كان مجهولاً بالنسبة إلى شوقي آغا، وهذه كانت نقطة القوة التي أمتلكَها والتي سعى للاستفادة منها لاحقاً.

في اليوم التالي أنهى فارس الدورة التدريبية واحتل، كعادته، المركز الأول، ورجع إلى المقاطعة متوجهاً رأساً إلى مركز الأمن حيث اطلع على أوراق التحقيق ودفتر المذكرات المزعوم – المكتوب في جلسة واحدة – وتحليل الخطوط ومقارنتها، وكلّ ما هنالك من وثائق أرفقت بملف الجريمة قبل وضع خاتم «منجز» عليه!

تفحّص فارس صور «القاتل» المقتول وكان واضحاً أن الرصاصة خرجت من ظهر «القاتل» أي إنه أعدم إعداماً ولم تُطلق النار عليه وهو يفرّ!.. وحين سأل زميلاً له عن الأمر أجابه بكل

فخر «شوقي آغا أمرنا أن نأخذ الحق بمحاكمة ميدانية، وألّا ننتظر المحاكمات المملة».

«كان الأجدر به أن يقول بأن شوقي آغا أمرهم بإحضار جثة إليه لينتهي من هذا الموضوع الممل!».

- وبعد ذلك ماذا جرى؟ وهل وصلتك رسالة جديدة أم توقفت الرسائل؟
- بعد عودتي بأسبوع وصلتني رسالة تعزية ساخرة «رحم الله همسة، لا حول لها، وانتقم من الجبناء».

لقد كنت المقصود بكلمة «الجبناء» لكن المرسل لم يكن يعرف أني أحصي أيام شوقي آغا وأخيه الأخيرة.. بتأنٍ.. لقد كنت أمتلك نسخة من كتاب خطاياهم، وحين يحين موعد حسابهم فلا غفران يرتجى!

سميح آغا

أصغر أولاد فؤاد باشا، في عقده الثالث، أمضى غالبيتها في المجون والعربدة وبناء عضلات جسمه، متنقلاً بطيش بين النادي الرياضي والبارات. معظم أوقاته يكون منتشياً أو سكران، فإذا غابت الفودكا حضرت الويسكي وإذا غابت «الحشيشة» حضرت الكوكايين.

كان فاشلاً على الصعد كافة باستثناء مغازلة النساء ولعب «البلاي- ستايشن»، كان يمتلك وجهاً جميلاً محبباً يَلبسه قناعاً لنفسه الشهوانية القذرة، وكان يحظى بحبٍّ غريب من أفراد عائلته رغم المصائب التي جرها عليهم طوال حياته والمواقف المخجلة التي وضعهم فيها!

كانت النساء يتدافعن إليه، وبعضهن يزحفن تحت قدميه النافذتين المرصّعتين بالأموال! لكنه كان صياداً، يسعى دائماً خلف الطريدة الصعبة، لكأنه يلعب لعبةً افتراضية، أو يصيد وحشاً

أسطورياً لم يتمكن منه أحد قبله، وغالباً ما كان ينجح في مسعاه.. لكن الكارثة كانت تقع عندما يفشل هذا المسعى!

«هند، سلوى، مروة، شــروق،...» أسماء لفتيات قضين بظروف غامضة – غالباً انتحار – كلهن كن ضحايا شهوات سميح آغا!

كيف كن ضحاياه وقد انتحرن؟!

– خذ «هند» مثلاً، كانت فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، أنهت تخصصها في الخارج وعادت لإدارة إحدى الصيدليات.

برونزية اللون، ممشوقة القامة، سوداء الشعر، ذات عينين خضراوين تكونتا أسفل حاجبين دقيقين، والشفتان قرمزيتان تشقّق طرفاهما كثمرة تينٍ وسال العسل منهما.

قوية وصعبة المراس، لا ترتبك إذا ما فاجأتها وقاحة ما، بل ترد الصاع صاعين. حاول سميح التقرب منها، بالكلام المنمق، واستعراض الثراء، وإغداق الهدايا، لكنها لم تتجاوب معه، ولم تغرها فكرة بيع نفسها! وهي العارفة بسميح، وكذلك بصيته وقرفه.

بعد أن أعيته الحيل معها، ولم تنفع طرق الترغيب ولا تلميحات الترهيب، كان لا بد له من إلقاء الشباك على الطريدة!

في إحدى الليالي، وعند إقفالها للصيدلية، قام بمساعدة

أصدقاء المجون باختطافها بعد أن رشّوا مادة منومة على وجهها، رموها في السيارة واتجهوا إلى إحدى الشاليهات.

انتزعوا ثيابها وأقفلوا فمها بشريط لاصق وربطوها إلى الكرسي عاريةً. سكبوا دلواً من الماء البارد على رأسها فاستفاقت مذعورة، أبعد سميح شعرها المبلل عن وجهها، رمقها بنظرة الضبع الصفراء السادية، قبّلها على جبينها ثم جلسوا يلعبون الورق وينظرون إليها...

أخذ كل واحد منهم يعطي رأيه في تفاصيل جسدها، عن جمال العينين وتكوير الثديين والساقين المرسومين رسماً، حتى أنهم بدأوا يقترحون بعض التعديلات الممكنة هنا وهناك من تنحيف أو تكبير أو غير ذلك..

بعد نصف ساعة تقريباً، قال لها سميح: «يا هند شايفة وضعك، فكيف بدك نكفي السهرة؟ أنا وأنتِ لحالنا.. أو كلنا سوا؟» (مشيراً إليه وإلى الشبان الثلاثة الآخرين).

كانت هند تسبح بدموع كبريائها المحطمة التي سالت مع مخاطها على الشريط اللاصق، والتصق بشعرها الذي حاولت أن تستر وجهها به، وتغرق في لونه الأسود ولا تستفيق!

زفيرها وصرخات عزة نفسها المكبوتة ومحاولاتها المتكررة

لفك نفسها من القيد، كل ذلك قد أنهكها وأسال الدماء من معصميها.

كان سميح يعرف على وجه الدقة إلى أي مرحلة من الانهيار يريد إيصالها، أراد تحطيم عنفوانها وتهشيم صلابتها دافعاً إياها للشفقة على نفسها، والخجل من ذاتها فتنتهي إليه جاهزة لتسليم جسدها بعد أن تكون روحها قد انكسرت!

حين انتزع الشريط اللاصق عن فمها بصقت عليه، فعاجلها بصفعةٍ أدمت خدها الأيسر، مسح وجهه بساعده، أمسكها من شعرها حتى كاد يسلخ فروة رأسها وانتزعها من الكرسي بكل ساديته ملقياً إياها على السرير مكبلة بالحبال عارية ومنهارة.

كانت كلبوة جرحتها رصاصة صيّاد فأقعدتها عن الدفاع عن نفسها وردّ الخطر، تتالت ضرباته لها حتى أفقدتها القدرة على المقاومة ليغتصبها عدة مرات، مع حرصه على تسجيل مقاطع فيديو لما يحدث، وعرضها عليها فارضاً هيمنته ومؤكداً سطوته وذلك لإخافتها ومنعها من الإتيان بأي فعل ضده أو التصريح بشيء مما حدث.

بعد انتهائه منها، تركها لأصحابه الذين تناوبوا على اغتصابها بوحشية وقذارة إلى أن سالت الدماء من أنحاء عديدة في جسدها

الأزرق، وأصبحت أسمالاً بالية، جسد هالك تنبض الحياة فيه بمشقّة!

تجرعت هند أصناف الدناءة الشهوانية، وارتشفت الذل والغدر بكأسٍ مترعة بالغرائز الحيوانية حتى شُل جسدها الضعيف وانسحقت روحها.

بعد عدة أيام، وجدت هند منتحرة داخل صيدليتها، وبجانبها رسالة كتبت فيها كل الذي حصل معها وبالتفاصيل.

- يا رباه! وكيف لك أن تعرف ذلك؟
- أنا الذي أخذت الرسالة وأخفيتها!

انتفض إياد من مكانه صارخاً «لعنة الله عليك.. كم أنت حقير وسافل! لعنة الله عليك، أنت لا تقل سوءاً عنهم».

- كنت يا إيـاد، كنت كذلك... قبل أن أستفيق.. كنت كذلك.. ما كنت أعرف...

تابع فارس سرد موبقات سميح التي يعرف بعضاً منها.

- «شروق» فتاة أخرى، كانت طالبة تدرس في كلية الفنون، حاول سميح التقرب منها فصدّته، فهي كانت قد نذرت نفسها للرب ولم يكن يعنيها الرجال ولا العلاقات الغرامية.

كانت معروفة في أوساط الطلاب بالتزامها وأخلاقها العالية ومحبتها للجميع من دون تمييز مذهبي أو مناطقي، قديسة صغيرة تجول بين الخراف الضالة.

كانت تمتلك أجمل عينين قد رُسمتا يوماً على وجه فتاة، يتدفق النور منهما فينعكس على صفيحة وجهها لؤلؤاً من السماحة والبراءة.

لست أدري ما الذي دفع سميح إليها، لكنه أرادها وعقد العزم عليها، ومن جديد نصب شراكه، لكنها لم تقع فريسته وكانت تردّه دائماً بطريقتها المهذبة وتشرح له بأنها قد نذرت نفسها للرب، والحب الذي يحكيها عنه لا يقارن بالحب الإلهي الذي يغمر قلبها.

لكن أي ربٍّ يشفع مع ساديٍّ كسميح آغا؟! لم يقتنع، وبقي يعاكسها ويلاحقها ويرسل إليها المراسيل والأزهار والهدايا.

شكته لأبيها فمنعها من الذهاب إلى الكلية! قائلاً لها «استرينا، نحن لسنا بمنزلة تلك العائلة ولا نقدر على مجابهتهم!!»، فشكته إلى السيد عابد، فأثار الموضوع مع فؤاد باشا وحصل خلاف حاد بينهما – ربما كان السيد عابد يريدها لنفسه! – لكن الخلاف لم يفضٍ إلى نتيجة فقد ظل سميح يلاحقها.

خطر لها أن تشكوه إلى أخته ليلى، فقدمتها له على طبقٍ من فضة!..

- كيف ذلك؟ وما علاقة ليلى بالموضوع؟!
- سأحكي لك عن الست ليلى لاحقاً، لكن المسكينة «شروق» تكلمت معها وشكت لها أخيها، فاستنكرت الست ليلى الموضوع وغضبت وأعطتها موعداً في إحدى شققها لحل الموضوع نهائياً.

أتت «شروق» على الموعد وكم شكرتها على استقبالها لها عند الباب، وبعد أن استمعت إليها، استأذنتها للتكلم على الهاتف، خرجت ليلى، دخل سميح وكان الشيطان ثالثهما!

مسكينة «شروق» لا يزال أهلها يبحثون عنها إلى الآن..

- أتعرف أين هي؟
- في فضلات الذئاب!
- لا تقل لي إنك نظفت فضلاتهم فعرفت؟
- بالطبع لا، لقد نظفت فضلات كلبٍ واحد فقط.
- لم أفهم.

قام «سميح» بعد أن ضربها واغتصبها بدفعها دفعة قوية فاصطدم رأسها بحافة الطاولة وقضت نحبها. هاتف شوقي فأرسلني «لتنظيف» المكان، لففناها ببعض الأغطية ووضعناها في

كيسي قمامة كبيرين، وأخذناها إلى مزرعته، وهناك ألقاها للذئاب التي كان يقتنيها فنهشت لحمها نهشاً!

- يا ستّار.. أنت لا تقل عنهم وحشية يا فارس، أنت مثلهم!
- كنت يا إياد، كنت...

قفص العصفور

الحياة، ومضة صغيرة تأتي وتمضي، بعضنا يصرفها في ما مضى، بعضنا الآخر يصرفها بما سيأتي، ومنهم من يوضبها صندوقاً ويعيش بداخله، ومنهم من يطلقها حلماً وفي ثناياها يحيا. بعض منّا يمضيها منتظراً نهايتها، وآخر يجعل من كل طرف نهاية بداية جديدة. ولكن الحياة هي هي، والفرق كائنٌ في الكائن.

وكما أنّ لكل حياة غاية ومسلكاً، فلكل موت طريقة ومسرب، فالموت هو إسدال الستارة عن هذه القصة أو تلك، وقد يكون أيضاً رفع الستار عن هذه القصة أو تلك!

والموت المسرحي هو ذلك الموت الصاعق المفاجئ، المتفجّر كالبركان يحمل خبايا الأرض المستورة ويكشفها للعيان، يحملها من قلب الأرض إلى سطحها، فيعريها، كاشفاً إياها على حقيقتها.

ذلك النوع من الموت هو الذي كان يليق بمكانة شوقي

آغا، وكان على فارس تحضير المسرح واختيار الزمان لمشاهدة المسرحية!

بعد عودته من التدريب الأخير في مقاطعة «ج»، تظاهر فارس باقتناعه بقصة موت «همسة» وشكر شوقي آغا على المحاكمة الميدانية التي حصلت، وعلى الرغم من أن بعض الشكوك قد راودته حول تصديق شوقي آغا له، لكنه راهن على غروره الذي سيمنعه من أخذ الحذر منه، وعلى الوقت الذي سيضيع ما بين اللحظة الآنية واللحظة الأخيرة على خشبة المسرح!

عرف فارس أن الصبر مفتاح النجاح في مسعاه، فانكب على عمله بصمته المعتاد وإخلاصه المعهود، تابع مهماته وعملياته بنجاح يتلوه نجاح، وظل ينتظر الفرصة المؤاتية للانقضاض على شوقي آغا، وهو المتيقن بأنها ستأتي ولو بعد حين...

لم يرتبك، لم يتسرع ولم يملّ الانتظار خصوصاً أن الظلام في قلبه كان يزداد يوماً بعد يوم، ورغبة الانتقام تسري في عروقه وتتأصل في دمائه وتزداد حدّة!

مرّت سنة على مقتل «همسة»، والأثير ما زال يهمس باسمها في كل حين، مع إشراقة كل عين في وجه يستفيق، وغروب كل بسمةٍ على شفاه تتثاءب.

كان صوتها همساً، ومرآها همساً! كومضات ضوء يبان طيفها أو تلمس يدها أو يرف جفنها أمام بصر فارس، ويختفي..

سؤال واحد كان يقضّ مضجعه على الدوام، لماذا قتلوها؟ ومن الذي أعلمه بقتلهم لها! ما غايتهم وما هدفه؟ أهو صديق أم عدو؟ وهل بقي أصدقاء في هذا العالم! ما الذي يبتغيه منه ذلك الشبح الغامض! حاول تحليل الموقف عشرات المرات، ووضع الفرضيات، ومحاولة تتبع مصدر الرسائل، لكن محاولاته لم توصله إلى أي نتيجة.

«السر عند القاتل، سأعرفه لكن لا بد من الإجهاز على شوقي أولاً».

كان يزور قبرها من وقت إلى آخر، فيستقبله طيفها المشوّه، يتسامران ويطالبه بالصبر قليلاً، فيبتسم رغم إحساسه بتقلّب همسة في لحدها وجعاً!

يهدّىء خاطرها الهائج في خاطره، ويطمأنها إلى أنه دعا ملاك الموت وسيكون ضيفه الدائم في الفترة المقبلة، يبتسم طيفها لكنه يحثه الإسراع بهم إليها.

«سآتي بهم، فلا تقلقي يا حبيبتي، سآتي بهم مذلولين مهانين محطمين.. فلا تقلقي..».

- إياد: هل مسّك الجنون لتتحدث إلى قبر؟

- إنه العشق مكسور الجناح يا صديقي، فهو لا يجعلك تتكلم مع الحجارة فقط، بل يجعل الحجارة نفسها تنطق، فتسمعها!
- هذا الكلام سفسطة لا يغني ولا يسمن، دعنا منه، لنعد إلى شوقي آغا!، و..لا تقل لي صديقي مجدداً!!
- شوقي آغا، بحكم مركزه الأمني والعائلي، بالإضافة إلى علاقاته الكثيرة مع من يشبهونه، بنى لنفسه إمبراطورية صغيرة يحميها بشرعية مركزه وتاريخ عائلته وسلطتها، ويغذيها بالذهب الأبيض!
- هل تعني المخدرات؟!
- على أنواعها، وأصنافها وألوانها وكل ما يندرج تحتها أو بجوارها، من الحشيشة المحلية إلى حبوب الكبتاغون إلى الكوكايين والهيروين والمورفين وغيرها...
- هل كان يتاجر بها؟
- لا، فهو ليس على هذه الدرجة من الذكاء وليس بتلك الغباوة على حدٍّ سواء: فالتجار أكبر وأذكى منه ولهم امتداداتهم الدولية، وعلاقاتهم الأخطبوطية ويتبعون بطريقة أو بأخرى لمنظمات عابرة للحدود.

«شوقي آغا» كان قطبة صغيرة في هذه العباءة الدولية لا يعدو

أن يكون إلا البيدق المحلي في مرحلة من مراحل نقل البضائع شرقاً كان أو غرباً، لكنه بيدق مهمٌ رغم حجمه الضئيل!

كانت مهمته تتمحور حول تسهيل العملية وتغطيتها وتمويهها أمام العين الداخلية والأعين الخارجية، وهذا التسهيل يعود عليه بالفائدة المادية والمعنوية أيضاً.

- لكنه أمسك بعدّة عصابات وأطنان من الممنوعات؟!
- كم أنت ساذج يا إياد، هذه المسرحيات الهزلية يتم الاتفاق عليها، ووضع سيناريو متكامل لها. ولعلمك، فإنهم كلما صرّحوا عن ضبط كيلوغرام واحدٍ من الكوكايين فإن طناً منها قد مرّ بسلام! فتكون التضحية بمئة ألف دولار من أجل مئة مليون، وبهذه الطريقة تكسب الأموال، تبقي عناصرك بعيداً عن الشبهات، تنال الثناء محلياً وتستجدي المساعدات خارجياً!
- حسناً، أكمل.
- كان هناك عملية كبرى ستجري عند الحدود، وكانت الغنائم كبيرة حسبما فهمنا من اهتمام شوقي آغا بها، والتحضيرات الضخمة التي قمنا بها، وكان الخطأ البسيط بإمكانه أن يطيح رؤوسنا ورأسه معنا!

في ليلة العملية اتجهنا إلى الحدود للمراقبة عن كثب وتحسباً

لأي طارئ قد يحدث، فعلى ما يبدو أن هذه العملية هي التي تسمى بـ«ضربة العمر».

وصلنا إلى تلٍّ مشرف على سهلٍ ضيق، كان بانتظارنا مجموعة من «الكوساد» المخابراتي. سلّمنا عليهم وأخبرنا الضابط المسؤول «رحيم» أن الجميع في مراكزهم وقد تم نشر القناصة في المواقع المتفق عليها مسبقاً.

- «الكوساد»؟! في عملية تهريب كوكايين؟!!
- ما بك فد فوجئت؟!
- لم أجد الرابط بين الكوكايين والكوساد!
- «التدمير» هو الرابط
- كمن فسّر الماء بعد الجهد بالماء! ماذا يعني «التدمير»؟
- هل تظن أن تدمير البلاد والاستيلاء عليها يكون فقط بالاجتياحات والحروب العسكرية؟! المخدرات من أخطر الأسلحة التي يمتلكها الكوساد ويستعملها ضدنا، والأنكى أننا نشتريها بأموالنا!! وهي تشكل السلاح الأجدى لتخدير عقول الشباب وإشغالهم بالملذات، وهذا السلاح أثبت فعاليته في عدة مقاطعات، أتريد مثالاً على ذلك؟!!
- لا، لا داعي لهذا.. أعرف عن أي المقاطعات تتحدث.

- وصلت الشاحنات وتمّ إفراغ الحمولة ونقلها إلى سيارات رباعية الدفع لتجتاز حدود المقاطعة حيث يصار إلى إعادة تحميلها ونقلها شرقاً.

لم تستغرق العملية أكثر من نصف ساعة وتمت بسلاسة وسرعة قياسية، وهذا ما استدعى تنويه ضابط الكوساد بشوقي آغا على دقة التنظيم والجهوزية والمتابعة الميدانية للعملية.

ودّعنا أصدقاءنا وقفلنا عائدين، مررنا في أحد أماكن «البريد الميت»، وأخذنا حقيبتين كانتا على الأرجح تحتويان على مليوني دولار!

كان شوقي آغا سعيداً ودعانا إلى إكمال السهرة في مزرعته، أنا، هو، حسان وعادل.

وصلنا إلى المزرعة، مددنا أمامنا طاولة عليها كل أنواع المشروبات، فهذه «الفودكا» تغازل «الويسكي» وتزهو على «التكيلا» المجاورة للجين... تناول شوقي آغا إحدى قناني الشمبانيا وفتحها احتفالاً وبدأنا دق «الكاس».

عند الخامسة فجراً كان الجميع قد ثملوا وفقدوا أي إدراك، بدأ حسان وعادل يتراشقان بحبات الزيتون وهما يضحكان بشكلٍ هستيري، وعندما شاركهما شوقي آغا أيقنت أنه قد «انطفأ» وآن الآوان لإطفاء شمعته بشكلٍ نهائي.

اضطجع شوقي آغا على الطاولة وبدأ بالهلوسة، حسان وعادل افترشا الكنب وبدآ رحلتهما مع النوم. هززت شوقي آغا من كتفه وسألته إذا كان يرغب أن أنقله إلى غرفة النوم فأجاب أنه يريد أن ينام على الطاولة وبأنه يمكنني أن أنام أنا في غرفة نومه!

عرفت بذلك أن الخمر قد فعل فعله فيه، وأن هذا السفاح قد استوى وأصبح جاهزاً للقطاف!

وضعت يده اليمنى على كتفي وأسندته بيدي اليسرى وقدته إلى غرفته...

كان رأسه يتلاعب فوق كتفي، وبعض اللعاب يسيل من فمه، سألته: «أتذكر همسة يا شوقي آغا؟».

- شوقي: همسة.. همسة.. من همسة؟
- همسة قريبتي التي وجدت جثتها مرمية على الطريق!
- نعم، تلك الـ«همسة».. قريبتك... ماتت همسة.. ماتت همسة.
- نعم.. ماتت همسة، أتعرف من قتلها؟
- نعم... نعم.. لا أذكر اسمه.. قتلناه.. عادل قتله..
- لا لم نقتله بعد، لأن من قتلها هو أخوك سميح!
- سميح...سميح.. همسة... نعم ..نعم.. سميح الكلب «كلّ علقة بعلقني فيها».. سميح الكلب..

وضع فارس شوقي في السرير، رفع رجليه وسحب مسدسه الصغير الذي كان يضعه دائماً فوق كاحله الأيمن. تناول قلماً ودفتراً كانا بجانب السرير وكتب رسالة انتحارٍ قصيرة بخطٍّ يتطابق وخط شوقي آغا لكن مع القليل من التقطعات وميلان الحروف. وضع الرسالة بجانبه وتناول المسدس، ألغى وضعية الأمان، لقّم المسدس، وضعه داخل فم شوقي، فأرتعشت يده قليلاً..

«مرّ طيف همسة أمامي مبتسماً مبتور الأطراف فارغ العينين، فأطلقت النار وتركت المسدس بجانبه. ألقيت نظرة على الدماء التي كانت تنبع من رأسه دفّاقة وتلوّن الشراشف البيضاء بلون الحب السرمدي.. حب الموت، حب الحياة.. سيّان!..

ظهر «سـراف» المجنون راقصاً حول الجثة وأخذ ينشد مسروراً «دم.. دم.. دمدم..»

رجع فارس إلى الصالون، تناول كأسي فودكا احتفالاً بالقربان الذي قدمه واستغرق في النوم إلى جانب حسان وعادل.

عند ظهيرة النهار التالي، استيقظ حسان وسط معمعة من قناني المشروب المرمية هنا وهناك، نظر إلى رفيقيه المستغرقين في الكرى، ونهض متجهاً إلى الحمام ليغسل عن وجهه آثار الليلة الماضية...

الماء البارد على وجهه أيقظ حواسه، فغمغم بداخله «عليّ

إيقاظهم قبل أن يستيقظ شوقي آغا ويبهدلنا!». خرج من الحمام ونظر إلى آخر الرواق حيث غرفة شوقي آغا فرأى الباب مفتوحاً وهناك دماء على ما يبدو! ركض فوجده متوسداً دماءه في نوم أبدي.

أمسك الورقة التي كانت بجانبه فذُعر وركض نحو رفيقيه صائحاً بهما للاستيقاظ:

- فارس، استيقظ، لقد انتحر شوقي آغا.. لقد انتحر..
- انتحر؟! كيف؟! ماذا تقول؟؟..
- لقد وجدت هذه الرسالة بجانبه..

إياد: ما كان فحوى الرسالة؟

فارس: كانت الرسالة تقول «أنا آسف، يا رب سامحني، لم أعد أحتمل، طيف عابد لا يزال يلاحقني»..

- كم أنت خبيث...
- حسان: ما الذي علينا فعله يا فارس؟!
- علينا الاتصال بفؤاد باشا، هذا ما كان يوصيني شوقي آغا به إذا ما أصابه مكروه!

قام فارس بالاتصال بفؤاد باشا، ناقلاً إليه خبر «الفاجعة» والحدث الجلل، فأخبرهم أنه آتٍ على وجه السرعة وأمرهم بحراسة المزرعة إلى حين وصوله والتكتم على الخبر!

وصل فؤاد باشا إلى المزرعة على جناح الطير، ألقى نظرة على جثمان شوقي، مسّد جبينه الدامي وشعره الأحمر، التمعت دمعة في عينه لكنها لم تغادرها، بل بقيت محتارة في مقلته!

أخبروه تفصيل ما جرى منذ تركهم للحدود حتى وصولهم إلى المزرعة والسهرة التي أقاموها، وما تناثر من عبوات وزجاجات المشروب الفارغة خير دليل على ما كان.

ناوله حسان رسالة الانتحار فجن جنونه «شوقي لا يمكن أن ينتحر، أحدكم قتله، أحدكم قتله..».

أمسكه حسان وأخذ يهدئه قائلاً له: «أنت تعرفنا وتعرف ولاءنا وإخلاصنا له، فكيف يمكن أن نقتله؟؟!».

وأردف عادل «نحن معه منذ أعوام كثيرة، لطالما كنا الرصاص في مسدسه، والرصاص له طريق واحد، إلى الأمام دائماً»..

أما فارس فقد أمسك مسدسه بيده، لقّمه وتقدّم من فؤاد باشا ماداً المسدس نحوه من مقبضه، وركع على ركبة ونصف قائلاً «إذا كنت تظن أن أحدنا قتله فهذا المسدس افعل ما تراه مناسباً».

تناول فؤاد باشا المسدس ووضعه جانباً بعد أن أخرج المخزن والطلقة من بيت النار، وجلس يقرأ الرسالة من جديد! وأخذ يفكر بداخله «ما يقوله أولئك الحمقى صحيح تماماً، فهذه المجموعة هي المجموعة الوحيدة المقربة من شوقي، وكانوا ثلاثتهم ينفذون

المهمات القذرة من دون سؤال، وقد تم امتحانهم في العديد من المناسبات، ونجحوا في كل مرة... فكيف لي أن أشكّ بهم! لكن من قتل ابني؟! من المستحيل أن ينتحر شوقي، هذا قطعة من روحي أعرفه أفضل مما يعرف نفسه، لا بد أنهم كانوا مراقبين، وحين استوى الخمر في رؤوسهم وناموا تم تنفيذ عملية القتل!».

وقف فؤاد باشا وتمشى قليلاً ثم استدار ناحية الثلاثة قائلاً:

- هل أبلغتم أحداً؟
- لا، لقد اتصلنا بك على الفور
- حسناً فعلتم أيها الأغبياء.

بعد ذلك أجرى فؤاد باشا بعض الاتصالات الهاتفية، وأتّم جميع الترتيبات، وأبلغنا بقراره وآثر علينا الصمت... فالتزمناه!

***

صبيحة اليوم التالي عنونت الصحف: «استشهد بالأمس المقدم شوقي آغا، وذلك أثناء تأديته لواجبه في مكافحة المخدرات والإرهاب، وستقام الصلاة على ... إلخ».

كان مأتماً رسمياً وشعبياً مهيباً يليق بأبطال هذا العصر وفرسانه! وفود وشخصيات أمنية وسياسية واجتماعية ودينية تقاطرت للحضور وتقديم واجب العزاء، سفراء بعض الدول، حكام المقاطعات وأبناؤهم، إعلاميون، أكاديميون، فنانون..

وكذلك حضر الشعب الفقير لترديد هتافات الولاء وتجديد عهد الفداء!..

النسوة اتشحن بالسواد، وسالت الدموع بغزارة رغم الشتاء الجاف هذا العام، الأكاليل والأوسمة تزاحمت على النعش حتى لتظنن أنك أمام حديقة صغيرة من الأزهار!!

اتجهت إلى المنزل بعد الدفن «المهيب» وأنا أرثي لحال أولئك الجاهلين الغافلين، لكنني كنت سعيداً بالصيد الموفق، ورجوت أن تكون همسة سعيدة بذلك أيضاً ومطمئنة!».

وصل فارس إلى منزله مساءً، مغتبطاً بهدوء لم يعكره سوى عواء «سراف» «دم.. دم.. دم..» ورقصه بجواره كأنه يمثّل إحدى الشعائر القبلية، والسرور يبدو على محياه الفارغ لكأنه يمضغ الانتقام فينتشي بلذّته!

- فارس: تبدو السعادة عليك يا «سراف»!
- بكل تأكيد يا فارس. إن طعم الدماء المسفوكة في معرض الانتقام يكون ذا جودة عالية يشبه الطعام النفيس الذي تتناولونه أنتم البشر! فكيف إذا كان الدم أسود بطبيعته قبل هدره بسواد أعظم منه؟ عندها تصبح اللذة مضاعفة.

جلس فارس على تلك الشرفة ذاتها، يوم وصلته أول رسالة، مدّ قدميه على الحافة الخشبية وأخذ يرنو إلى السماء مبتسماً،

القمر مكتملٌ وعرّج بضوئه على الشرفة الصامتة مدغدغاً زواياها وفاضحاً الندوب التي تحملها!

كان فارس مغتبطاً بإنجازه للمهمة الأولى وبالكيفية التي أنجزها، ولم يتبق لديه سوى المهمة الرئيسة، وهي تعتبر بسيطة مقارنةً بالأولى.

رن الهاتف معلناً وصول رسالة جديدة: «البقاء بحياتك، حائط القلعة سقط وما تبقى إلا الغزو».

«نعم، ما تبقى إلا الغزو لكن من هذا الذي يرسل الرسائل؟ أيساعدني أم يقودني إلى هلاكي؟! لا بأس فلا فرق، النتيجة واحدة إذا كان ملاكاً لا يبتغي شكراً أو شيطاناً ينتظر أجراً؟!!».

العصفور والعصفورة

مع غياب شوقي عن خشبة الحياة، اتسع هامش الحركة، ومعه انبسطت زاوية بيكار الانتقام ليدور حول عنق سميح آغا!

كان الوصول إلى سميح آغا أسهل بكثير، فهو ليس بالطريدة الصعب اصطيادها، لكن فارس كان بحاجة إلى خطة تبعده عن أي شبهة؛ ففؤاد باشا قد يكون ساوره الشك بعد «انتحار» شوقي! وقد يكون زرع عملاء لمراقبته مع حسان وعادل، فبالتأكيد لن يمر موت شوقي بهذه السهولة، ولا بد أن فؤاد باشا يريد معرفة القاتل.

- اتخذت الحيطة والحذر في تحركاتي ومراقبتي له، فقد كنت أريد الاستمتاع بمشاهدة روحه وهي تغادر جسده!

فقال له إياد مستفسراً:

- ما الغاية من النظر إلى عينيه إذا كان هدفك الثأر فقط؟
- لأنني أردت أن أرى كيف تنطفئ تلك اللمعة في الأحداق لعلها تطفئ القليل من الغضب داخلي، كما أنني كنت بحاجة إلى التحقيق معه لأعرف تفاصيل الجريمة!

- مريض... أكمل.. واعفني من التفاصيل المقززة!

مر شهران على موت شوقي، وسميح قد فكّ حداده العلني وعاود نشاطه المعتاد؛ فمن أدمن حياة الليل والمومسات من الصعب أن يبتعد عنها بغير إرادته!

- راقبته لعدة أيام، حتى أصبح برنامجه اليومي راسخاً في رأسي، فرسمت الخطة على أساسه، وبما أنني دائماً على أهبة الاستعداد لأي عملية طارئة فقد كان بإمكاني تنفيذ الخطة في أي وقت أراه مناسباً.

في إحدى الأمسيات، كان يسهر في أحد البارات، انتظرته ريثما خرج بصحبة إحدى الشقراوات وتتبعته، بحذر، إلى أحد الشاليهات على البحر. كان الشاليه بعيداً نسبياً عن الشاليهات المجاورة وله شاطئه ومسبحه الخاص. وكنت قد استطلعته في وقت سابق.

كانت ليلة قمراء صافية، وبدت لي مناسبة للموت!

ركنت السيارة على بعد كيلومتر تقريباً، أخذت أدواتي وسرت إليه. حين وصلت، قمت بجولة دائرية حول الشاليه متفقداً، وبواسطة جهاز صغير مكبر للصوت سمعت الآهات والتنهدات فأدركت أنهما قد بدأ المعركة الجنسية.

تناولت مسدسي ووضعت كاتم الصوت، دلفت إلى الباب،

وضعت قناعاً على وجهي، فتحته ودخلت بهدوء، تخطيت الممر إلى الدرج اللولبي الذي يصعد بك إلى غرف النوم، الأضواء زرقاء خفيفة وقطع الثياب مرمية يميناً ويساراً، بعض الأزرار على الأرض الخشبية تلمع...

وصلت إلى غرفة النوم، فاقتحمتها بعنف شاهراً المسدس بوجه سميح وممسكاً بشعر المومس التي تعتليه، فحّت رائحة مقرفة في الجو، لا بد أنها رائحة الخوف الذي عصف فجأة في الأرجاء!

كبلتهما بشرائط بلاستيكية، وأقفلت فم المرأة وعينيها بشريط لاصق وربطتها بحافة السرير، واقتدت سميح مكبلاً إلى الصالون.

قيدته إلى كرسي، وانتزعت القناع عن وجهي، فارتخت شفتاه وتوسعّت عيناه من الذهول لرؤيتي.. وكأنه أحس بملاك الموت متقمصاً جسدي!

- فارس!! لماذا؟ ما الذي يجري؟!!
- ستعرف، ستعرف، لا تستعجل..
- ماذا تريد مني، لماذا كبلتني؟ فكّني حالاً! هل مسّك الجنون؟!!
- لا، ما زلت عاقلاً، لكن قل لي هل تذكر «همسة»، هل تذكرها أيها الجرو؟

- من هي «همسة»؟ ولماذا سأذكرها؟!
- همسة التي اعتديت عليها وقتلتها أيها النذل (وضربته كفاً على خده، فوقع والكرسي ما اضطرني إلى إعادة تجليسه!).
- كيف تضربني أيها الوضيع؟! عندما يعرف أبي ستتمنى الموت.
- ركّز على حياتك الآن ودعنا من موتي، هل تذكرت همسة أو بعد؟ (وعاجلته بصفعة أخرى على خده الآخر لأنشّط ذاكرته البليدة).
- لا أدري ما الذي تتكلم عنه، من هي همسة؟! لا أعرف أحداً بهذا الاسم!
- انظر إلى هذه الصورة أيها الحقير، ألست من صوّرها؟ (وأريته الصورة على الهاتف، فتغيّر لون وجهه) لا داعي للإنكار، وكلما اعترفت بسرعة جعلت موتك أسرع وأخف ألماً!
- لا أعرف شيئاً عن هذه الصورة، ولا أعرف من هي هذه.. فكّ قيدي الآن!

(استللت المدية من غمدها الملاصق لرجلي، وبدأت أغرزها في قدمه أعلى الركبة، رويداً رويداً.. فصرخ قائلاً).

- ماتت بالخطأ، لم أقتلها، ماتت خطأً (باكياً).. دعني .. دعني.
- لماذا قتلتها؟ ألم تكن تكفيك النساء اللواتي تغيرهن كجواربك كل يوم؟! لماذا همسة أيها التافه؟
- لم أكن أعرف أنها قريبتك، أقسم لك! عرفت ذلك فيما بعد.
- أنا لا أسألك عن هذا، أنا أسألك لماذا قتلتها؟!
- ماتت بالخطأ، لم أقتلها، ألا تفهم؟!
- لماذا اختطفتها إذاً؟
- لم اختطفها، لقد جاءت بإرادتها!
- امرأة مثل همسة، لا تأتي بإرادتها إلى سوقي مثلك، عليك بانتقاء كلماتك جيداً الآن لأن ساعة حياتك بدأ عقربها يسرع!
- لقد أوهمتها بأنني أريد أن تكون محامية لي في إحدى الشركات التي أنوي إنشاءها.
- لماذا في الأساس أوهمتها؟ ما هو السبب لذلك؟ (وغرز فارس الحربة أعمق).
- (أجاب صارخاً) ليلى..
- «ليلى»؟! من ليلى؟!!

- أختي ليلى
- وما شأن ليلى بهمسة؟
- ليلى كانت تكره «همسة» وأرادت أن أحطّم كبرياءها وأهشّم وجهها وأذلها ذلاً عظيماً.
- ولماذا كانت ليلى تكرهها؟
- لا أعرف.
- كيف لا تعرف أيها الحقير؟ (وضغطت الحربة في قدمه).
- لا أعرف، أقسم لك.. لا أعرف... دعني أرجوك.

سحب فارس الحربة من قدم سميح وغرزها بعنف أعلى الجرح الأول، فصرخ سميح متألماً بصوت يبتدئ بالآه وينتهي بالحشجرة الخفيفة.

صرخ فارس به «لماذا كانت تكرهها؟ اعترف الآن!»

- لا أعرف، أقسم لك بما تعبد لا أعرف..

(وقفت وفكرت قليلاً، نظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الحادية عشرة، يجب أن آتي بليلى إلى هنا لأعرف القصة، يبدو أن هذا التافه كان المنفذ فقط).

الساعة الحادية عشرة الآن، ستكلّم ليلى من هاتفك لتأتي إلى هنا.

- وماذا سأقول لها لتأتي الآن؟

- قل لها إن صديقك الوسيم هنا، فأنا أعرف أنكما ترتبان سهرات كهذه!
- إياد: ماذا تقصد «إنهما كانا يرتبان سهرات كهذه»؟
- فارس: لقد كانت ليلى تعاشر أحد أصدقاء سميح، وقد عرفت ذلك بالصدفة خلال مراقبتي له!
- ألم تخف أن يصرخ على الهاتف ويستنجد بها؟
- هو أجبن من هذا، ومتعلّق بالحياة، فلا مناص بأن ينفذ ما آمره به لإنقاذ حياته التعيسة.
- حسناً... تابع!

وصلت ليلى بعد نصف ساعة، وخلال هذا الوقت كان فارس قد أسدل الستائر وأضاء المصابيح العالية، وأخذ باستجواب سميح، فقام بإخباره كيف احتال على همسة، وأوهمها بأنه يريد أن يوكّلها محامية له وكيف اختطفها وقام بالاعتداء عليها، وكيف صوّرها وأرسل الصور إلى أخته ليلى.

«كان يخبرني وأنا أزداد اكتحالاً من الداخل وأغذي كرهي وأنمّيه..».

أخبره أيضاً أن همسة ظلّت تهدده بأنها ستفضحه أمام المحاكم وتقتص منه، ولن تخاف من صور عارية أخذها لها مغتصب قذر.

قال له إنها رددت كثيراً «المحكمة والمشنقة بانتظارك»،

وبينما كانا يتجادلان، حسب تعبيره، ضربت رأسها بالحائط وماتت بالخطأ.

عند هذا الحد غرز فارس حربةً أخرى في قدم سميح الثانية، فصرخ من الألم، فاعتذر منه فارس قائلاً «اعذرني، بالخطأ»!

«سألني ما نوع العلاقة بيني وبين همسة، فأجابه وجهي الحانق، كما سألني إذا كنت قد قتلت شوقي، أجبته بالإيجاب، فقال إنه كان متيقّناً بأنني القاتل وقد أخبر والده بذلك، لكنه لم يقدر على شرح سبب الاتهام وما قد يدفعني إلى ذلك، كما أن فؤاد باشا قال له بأن يخرج هذه الفكرة من رأسه لأن فارس لطالما كان وفياً لهذه العائلة، وقد قدّم الكثير من الخدمات مما لا يعلمه سميح! وهذا قد سرّني في الحقيقة لأنني تأكدت بذلك أنني خارج دائرة الشك!».

وصلت الست ليلى، وما إن ضغطت على الجرس حتى فتح فارس الباب لها، وتناولها من عنقها قبل أن تصرخ من دهشتها، واضعاً المسدس بين عينيها، فخرّت على ركبتيها غائبة عن الوعي.

حملها إلى جانب أخيها وكبّل يديها بالكرسي المجاور لكرسيه، وأقفل فمها بشريط لاصق.

تناول من البراد قنينة مياه باردة وسكبها على وجهها، فانتفضت مرتعشةً واستعادت وعيها.

انتظر لدقيقة ريثما أنهت محاولاتها الغريزية بالتحرر من القيود ومحاولة الصراخ ونقل نظرها بين فارس وأخيها المربوط كالخنزير البري إلى الكرسي وهو ينزف.

وضع فارس المسدس في فم سميح ونظر إلى عينيها مبتسماً، فهدأت والحيرة تغزو عينيها.

«اسمعيني جيداً يا ليلى، لقد أخبرني سميح كل شيء واعترف لي بأنه قد قتل «همسة». بقيت بعض التفاصيل التي لا يعلمها ستجاوبين عليها أنت. الآن، سأزيل الشريط اللاصق عن فمك، وأسألك بضعة أسئلة، ستجاوبين عليها. إذا شعرت بأنك تكذبين سأطلق النار في فمه، إذا صرختِ سأطلق النار، إذا فهمتِ جيداً ما قلته لك أومئي برأسك».. فأومأت.

انتزعت الشريط اللاصق عن فمها بيميني، ويساري على زناد المسدس الذي بدأ يبلّله ريق سميح!

- لماذا أردت تحطيم «همسة» وإذلالها؟
- لأنني كنت أكرهها وأغار منها.
- لماذا تغارين منها؟!
- لأنها جميلة ومتعلمة ومحامية ناجحة.
- حلو! على هذه الحالة فكل متعلمة وناجحة وجميلة ستقومين بتدبير قتلها، أليس كذلك؟

- لم أطلب منه أن يقتلها، كنت أريد تحطيم كبريائها فقط! لكن الأمور خرجت عن السيطرة.
- «خرجت عن السيطرة»؟! كم هو القتل بسيط بقاموسك، قولي لي ما الذي كان يدفعك للغيرة منها ولكرهها!
- حكايات أخي جواد!
- ماذا؟
- أخي جواد كان كثير الحديث عنها.
- ماذ كان يقول؟
- لقد كان يردد على الدوام: «همسة» تقاس الناس بها، فالأنوثة تقاس بقدّها، والرزانة بشخصيتها، والفهم بعقلها، والنجاح بمسيرتها المهنية، وإذا كانت لم تتزوج إلى الآن فلأنها لم تجد رجلاً يكون ندّاً لها، فطوبى لمن ستكون شريكته..».

كان يعيد هذا الكلام دائماً في الفترة الأخيرة، وكانت تمزقني الغيرة ويزداد كرهي لها، فمن هي مقارنةً بي، وكيف لأخي أن يراها ولا يراني؟! أتصبح تلك الغريبة البعيدة النكرة مقياساً؟! أتصبح الخادمة سيدة إذا ما حازت إجازة علمية؟! من هي؟ فلاحة ابنة فلاحة، وضيعة ابنة وضعاء، عبدة في قطيع يسبّح باسمنا في ثغائه!

- ألهذا السبب كرهتها؟ ألهذا عصفت الغيرة بك؟ أأنت مريضة أم مهووسة؟!
- لا، ليس لهذا فقط، فقد بدأ الخوف يعتريني بأن يكون جواد قد أحبها فيتقدم لخطبتها ويأتي بالأفعى إلى منزلنا، جاعلاً من الخادمة سيدة ومن الوضيعة راعية، فتكون تلك الكارثة بعينها!
- وكيف كان لجواد أن يعرفها؟
- كانت مريضة عنده، تزوره في عيادته.

(الآن اتضحت الصورة وفهمت ما الذي يجري!!)

إياد: ماذا اتضح؟ لم أفهم شيئاً!

- دعني أكمل ستفهم قريباً...

طلبت من ليلى أن تهاتف جواد آغا وتخبره أن يلاقيها في شقتها لأنها تحتاجه في أمر خطير وخاص جداً. فوجئت ليلى بأنني أعرف بامتلاكها لثلاث شقق لا يعرف زوجها بها!

كلّمته وهي تنظر إلى المسدس في فم أخيها سميح وصوتها يرتجف، وكم كانت مقنعة حين قالت له إن المسألة مسألة حياة أو موت.

أغلقتُ الهاتف، ضغطت على الزناد، تناثر دماغ سميح على أرضية الصالون...

صرخت ليلى، فوضعت المسدس بين عينيها!

- لا تقتلني أرجوك، أتوسل إليك، بحياة من تحب، ومن تعبد... إني أرجوك...
- لقد حرضت أخيك سميح على «همسة»، وحان الموعد لتعبري إلى الضفة الأخرى حيث تنتظرك «همسة» لتأخذ بحقها.
- لا، لا، أرجوك.. سأعطيك ما تشاء.. أتريد مالاً؟ جواهر؟! أتريدني أنا؟ انظر إلي، سأكون لك.. قل لي ما الذي تريده وسأعطيك إياه.. لكن دعني أعش.. لا تقتلني.. ما زلت صغيرة ولست مذنبة بما فعله أخي، فلا تعاقبني على عمله!
- كنت أود لو أستطيع، لكنك تأخرتِ على موعدك يا ليلى.
- لا، لم أتأخر عن شيء، سأتوب عن كل هذا، فقط دعني.. دعني..

وبينما هي تتوسل، زرعت في أنفها الجميل رصاصةً أطاحت جسدها على الأرض وهشمت وجهها.. لم يكن يعجبني بجميع الأحوال رغم عمليات التجميل التي أجرتها له!

مرّ طيف همسة أمامي وقد استعاد اليدين.. لكن العينين مازالتا كهُوفاً فارغة، ابتسم ومضى..

أخذ فارس صورة وداعية لجثتيهما، تفرّس في صورة وجهه المنعكسة على بقعة الدماء فأعجبه المنظر! تركهما إلى جانب «سراف» الذي كان قد شرع في تناول العشاء على رائحة الدماء وطعم البارود!

ذهب إلى غرفة النوم، اقتاد المومس ووضعها في صندوق سيارة سميح، استقلّ سيارة ليلى وتوجّه إلى شقتها...

كانت ليلى تخبئ مفاتيح الشقق في صندوق مخفي داخل سيارتها، ركنها عند المدخل تماماً، وصعد إلى الشقة لانتظار «جواد آغا».

- رافقني طيف «همسة» معظم الوقت وتركني على باب الشقة، لكأنه رفض الدخول، أو هكذا خيّل إليّ.
- ما هذه القصة العجيبة؟! لقد سرت شائعة مفادها أن مقتل سميح وأخته كان نتيجة عملية ثأر، وتصفية أحقاد قديمة، لكننا لم نعلم عملية ثأر لمن؟

مال فارس بجسده نحو الأمام وقال مبتسماً:

- قبل أن أترك الشالية، أخرجت رسالة الانتحار التي كتبتها «هند» وتركتها بالقرب من سميح وليلى.
- ما أخبثك (مع ابتسامة صفراوية).

رأس الأفعى

بعض التشققات الصغيرة في السطوح أو التصدعات في الجدران غالباً ما تكون السبب الرئيس لانهيار المنزل على رؤوس ساكنيه. فالموت يكمن في التفاصيل الصغيرة ولا يحضر في المشهد العريض. أما ظننا بأن تلك التشققات البسيطة لا تشكّل خطراً فهو محض أوهام، وهروب نحو الأمام، وصدمةٌ ساعة الحقيقة!

دق جرس الباب، ففتح فارس لجواد آغا ودعاه إلى الدخول بحركة بسيطة من المسدس، فدخل باتزان وهدوء فاجأ فارس، خصوصاً أنه لم يهلع عند رؤيته والمسدس في يده!

اتجه إلى الصالون، جلس على الكنبة، اتكأ إلى الخلف لكأنه يرأس اجتماع عمل عادياً، غير آبه بالحضور! وبادر بالقول:

- وجودك هنا يعني أنك قد ربطت الخيوط بعضها ببعض يا فارس!
- بالتأكيد.

- هل قتلت سميح؟
- وليلى أيضاً
- إذاً، لقد أدركت كل شيء.
- بعض الأشياء لا تزال غامضة، ستفسرها أنت لي.
- حسناً... اسأل.
- لقد كنت تعرف أنني و«همسة» تجمعنا علاقة حب، وكنت تدرك بلا شك أنه إذا ما أصابها مكروه فإنني سأسعى وراء الجناة، لكن كيف عرفت ذلك؟ ولماذا أردت التخلّص من أخوتك؟
- لنبدأ من السؤال الثاني فهو الأسهل، وجوابه ببساطة أنني أردت الزواج وتأسيس عائلة، ولأتمكن من فعل ذلك عليّ أن أكون حيّاً، ولأبقى حياً يجب أن أكون قاتلاً لا مقتولاً.
- لم أفهم! ما علاقة هذا بذاك؟!
- يا عزيزي، نحن أربعة أخوة، ورغم أن لكل واحد منا حياته ووظيفته الخاصة وعالمه المنفصل عن الآخرين، ومشاغله ومجاله، إلا أننا جميعاً أولاد فؤاد باشا، ما يعني أن أحدنا سيرث كل ذلك الجاه والسلطة بعد موته ويتسلّم الدفة مكانه.

ولحجب أي منافسة ممكنة أو صراع على السلطة، فإن سعيد الحظ بيننا سيقضي على البقية كما فعل والدي مع جدي، وجدي مع والده من قبل.

فوالدي دبّر اغتيال والده وعمي، وجدي خنق والده يوماً... ونحن كما ترى، كان لا بد وأن يأتي اليوم الذي يصفّينا شوقي فيه.

فشوقي كان الأقوى بيننا جسدياً ومعنوياً، بحكم مركزه الأمني وتدريبه العسكري وعلاقاته المتشعبة داخل المقاطعة وخارجها مما أكسبه القدرة والنفوذ اللذين يحتاجهما لتصفيتنا إذا ما طالبنا بكرسي الزعامة!

كما أن شوقي كان أيضاً الأقرب إلى والدي قلباً وقالباً، ولطالما ردد والدي العزيز أمامنا «سأموت مطمئن البال لأنني أنجبت شوقي».

- هل أنت متأكد أنك بكامل قواك العقلية؟
- للأسف أنا كذلك، وربما هذا الوضع هو من الأوضاع القليلة التي أتمنى أن أكون فيها مجنوناً! فلا يعيرني أحد اهتمامه، ولا أخاف على نفسي من أحد أيضاً، لكن الواقع شيء والأمنيات شيء آخر!
- لكنهم أخوتك، لحمك ودمك، عائلتك!!
- لا تخدعنك المظاهر والمناسبات الاجتماعية التي نظهر

فيها متحدين، ولا شعارات العائلة والأخوة وما إلى هنالك من هذه التفاهات، فنحن لا يجمع بيننا سوى السقف الواحد، لكنه كسقف بناية جميع شققها بالإيجار!

حسناً، إذا كان هذا ما تقوله، لكن لماذا لم تكلف أحداً باغتيالهم؟

فكرت كثيراً بذلك، واستشرت أحد أصدقائي المقربين بشكل غير مباشر، لكن أحداً لن يجرؤ على القيام بعملية انتحارية كهذه، كما أن التجهيز اللوجستي سيكون ضخماً والعملية تحتاج إلى العديد من العناصر والتمويل الذي لا أملكه حالياً، وكل ذلك يعني أن الأمر لن يبقى سراً وسينفضح عاجلاً أم آجلاً، وإذا انفضح سيكون رأسي على طبق من فضة أمام شوقي، أو سأتعفن في أحد أقبية السجون.

- ولذلك اخترتني أنا؟!
- نصل إلى سؤالك الأول، وعليك أن تلاحظ لعبة الأقدار! فقد زارتني «همسة» في عيادتي، وقد كانت تعاني إحباطاً نفسياً كبيراً نتيجة المرحلة الانتقالية التي كانت تعصف بها وقتذاك، وفقدانها لمنطقة الراحة والأمان، وأنت تعلم سبب ذلك!

امتدت الجلسات لمحاولة الوصول إلى سبب الإحباط

ومعالجته. وفي إحدى الجلسات أخبرتني عن حبها السري والمشاكل القائمة بينكما بسبب معارضتها لطبيعة عملك، والخلاف الكبير الذي حدث بينكما نتيجة لذلك، ورفضك الشديد أن تترك عملك بل حتى تفضيلك للعمل عليها!

وحينما ذكرت اسمك عرفتك فوراً!

وبما أنني أعرفك وأعرف مآثرك فقد لمعت الفكرة برأسي في الحال، أنت الذي كنت أبحث عنه لتنفيذ ما أفكر فيه، وإذا استطعت إيجاد الدافع الصحيح لك وتوجيهك بالاتجاه الذي أريده فستنجز المهمة بشكلٍ متقن، من دون أية تعقيدات أو شبهات، ومن هنا بدأت برسم الخطة!

- تابع...

كان الإيقاع بليلى سهلاً، فهي لطالما كانت متعجرفة، متكبرة، نرجسية، لا تحتمل أن يكون أحدٌ أفضل منها، أو أرقى منها أو أجمل منها، وإذا ما برز نجم إحداهن كانت تسعى لإطفائه دوماً. فدأبت على تكرار إبداء الإعجاب بهمسة، بجمالها، وذكائها وشخصيتها الفذة، وكنت ألاحظ تأجج نيران الغيرة في قلب ليلى وألمس الحسد الذي قد بدأ يتآكلها من الداخل، وقد أدركت أنها ستسعى لإيذائها بمساعدة سميح كما جرت العادة.

- ما زلت غير مقتنع بأن تكون الغيرة فقط هي الدافع،

فمن المستحيل أن تنجح باللعب على هذا الوتر لتحقيق غايتك، لا بد من توافر أسباب أخرى وتضافرها!

- صحيح، لكن ما لا تعلمه أنت، أيها الأمني (وابتسم بمكرٍ) أن ليلى وسميح ارتكبا الخطيئة المحرمة في مراهقتهما، ومنذ ذلك الحين أصبحت ليلى تحس بعقدة النقص ويعتريها الخوف والرهاب، كما أن سميح الذي أحسّ بالذنب وظل يلوم نفسه على تلك الفعلة أضحى كالخاتم في إصبع ليلى.

نتيجة لذلك، عادة ما كانت ليلى تسعى لتحطيم من لا يعجبها بواسطته، من دون أي شعور بالذنب أو إحساس بالندم، وسميح لم يكن يرفض لها طلباً، إضافة لكون من تختارهن دوماً، كن جميلات. فهذا يجعله يزهو بحسه الذكوري ويستعرض رجولته وفحولته!

وبما أن لكل إنسان دافعاً يحركه، فأنت الآن تدرك أن أقوى الدوافع هو الحب ، فكيف إذا مزجته بالغضب! سينتج من ذلك خليط يمتلك قوة تدميرية هائلة لا تبقي ولا ترحم ولا تتراجع، وهذا لا يعادله أعتى مركّب من المتفجرات. الإنسان هو القنبلة الأشد خطراً إذا ما لاءمت بين مكوناته النفسية الدقيقة والصاعق الذي يفجره!

وبهذا تكون الخطة نظرياً ممتازة، وعلى ما يبدو إلى الآن فالخطة عملياً تبدو ناجحة ونتائجها الميدانية واضحة جداً!

- لكنك تتغاضى عن أن هذه الفكرة الناجحة بُنيت على موت «همسة»!!
- لم أكن مدركاً أن الأمر قد يصل إلى قتل همسة!
- بل كنت مدركاً لذلك، فلا تلبس ثوب الغباوة أمامي!
- أنت محق، لقد وضعت هذا الاحتمال ببالي، خصوصاً أن لسميح ماضياً أسود في هذا المجال، لكن كان لا بد من تقديم عذراء طاهرة على مذبح هذه المعمعة الشيطانية، وصدّقني بأنني متأسف جداً على موتها، ومن أعماق قلبي، لكن في الحروب يسقط الأبرياء ضحايا ويكونون وقوداً لها، تشتعل بهم وتنطفئ من أجلهم، لا بد من تقديم الأضحية من أجل الخير العام!
- هذه الضحية هي حبيبتي أيها التافه، وأنا متأسف أيضاً، ومن أعماق قلبي، لأنه يجب عليَّ أن أنهي حياتك انتقاماً لهمسة... وانتقاماً لي!
- مهلاً، لا تتسرع، دعني كي أُريك الصورة من زاوية أوسع من زاوية ثأرك الضيقة.

مع القضاء على شوقي فأنت تكون قد قضيت على أحد أشد

رجال الأمن فساداً، ومع الإجهاز على سميح تكون قد أجهزت على أكثر المتحرشين شراسة ولو أخذ أحدهما مكان والدي فلك أن تتخيل مقدار المصائب التي ستنتج في مجتمعنا بسببهما ومن ذريتهما.

أما الآن، وإذا أنصتَّ إليّ، وأكملت الخطة إلى النهاية، فستعيش قرير العين وتكون قد حققت ثأرك من جهة وتركت كرسي الزعامة لطبيبٍ متعلّمٍ، مثقّف من جهة أخرى، وبذلك تطمئن على مستقبل أولادك في هذه المقاطعة!

اسمع، لم يبقَ أمامك الآن سوى أن تتخلص من أخي سمير ووالدي، وبذلك تكون مهمتك قد انتهت وأدّيت واجبك تجاه ذكرى همسة وتجاه مجتمعك.

- بئس العلم والثقافة والمستقبل المبني على الدماء، أنت لست طبيباً نفسياً بل مريضاً نفسياً!
- لا تطلق أحكاماً في الهواء، ولا تنطق بما تجهل؛ فالسلطة تبنى إمّا على رجال أذكياء يعرفون كيفية إدارة الدفة وإما على رجال قساة يأخذون من البطش دينهم وديدنهم، أما أنا فأنتمي إلى النوع الأول وأحمل أفكاراً كثيرة ستسهم في تقدّم هذا المجتمع وتطوره.

- فعلاً!! «ما أفصح القحباء وهي تحاضر بالعفة»، أي مجتمع ستبنيه وقد وصلت إلى سدّته راقصاً فوق الجثث؟!
- ما زلت تتكلم بلسان من يطلب الثأر ولم تسمح لنفسك بأن تتعالى عن جرحك في سبيل الخير العام. بناء المجتمعات القوية لا يقوم إلا على الدماء، لكأنها صلبها أو الهيكل المعدني الذي تقوم عليه أركانها!

كل الثورات في العالم عُمّدت بالدم كي تنتصر وتأتي بنخبة لتقود المجتمع نحو الأفضل، صحيح أن تلك الثورات قامت بها الشعوب لكن شعبنا وضعه مختلف، فكل الأمراض المجتمعية تعشّش بين حناياه، والطريقة الوحيدة هي أن تأخذ النخبة زمام المبادرة، أما الغوغاء فعندما يرون النتائج لن يسألوا عن الطريقة أو الماهية، فالقطيع بطبعه يتبع الراعي من دون تردد أو سؤال!

- الثورات التي يقوم بها الناس قد يعقد الأمل عليها لأنها تنطلق منهم إليهم، تنطلق من وعي الناس بحريتهم في وجه الاستبداد والاستعباد والاسترقاق. أما الذي تهذر به أنت ما هو إلا دكتاتورية تحاول تغليفها بقشرة من الحضارة، أنانية مقنعة متأصلة في نفسك الدنيئة ولا تخدع إلا السذّج من الناس.
- لا، ليست كذلك أبداً، لو كنت تعرفني حق المعرفة لما

قلت هذا، ولما حكمت بهذا الحكم السطحي المتعسف عليّ! اسأل جميع من يعرفني وسيخبروك عن تواضعي وانفتاحي على الجميع وتقبل الرأي الآخر والمشاركة في اتخاذ القرارات والجو «الديمقراطي» الذي أشيعه في المستشفيات التي أملكها وتلك التي أعاين فيها.

- سألت عنك يا دكتور، بالتحديد سألت «همسة»! وقد قالت إن كل الديكتاتوريات ابتدأت من الفكرة ذاتها، ومع أشخاص طيبين في بعض الأحيان، لكنهم بعد استوائهم على العرش واستئثارهم بالسلطة، أطلقوا الوحش الكامن بداخلهم، الوحش الدموي الذي نعرفه عن فخامتك الآن!
- الأيام ستثبت ما أقول!
- وقد تثبت عكس ما تقول!
- إذن دعنا مما نجهل وركّز على الحاضر، لا تزال أمامك مهمتان اثنتان وتتكلل هذه الخطة بالنجاح.

سمير هو الهدف الأقرب والأوجب، وهو الآن في شقة قريبة من هنا! هذه الشقة تستعمل لتخزين الأموال غير الشرعية ليصار إلى تبييضها لاحقاً. أودِ به وسنرى لاحقاً كيف نتخلص من والدي العزيز!

- همست بداخلي «لقد كنت أظن في بداية هذه الليلة أنني

سأطفئ شمعةً صغيرة فإذ بي أمام شمعدان مشتعل! أستطيع أن أقتل هذا الأمّعة الآن، وأكون قد انتهيت من مهمتي وانتقمت ممن خطط وحرض ونفذ قتل همسة، لكني سأترك سمير آغا وفؤاد باشا أحياء، وهما لا يقلان نجاسة ونذالة عن أولئك الذين قتلتهم.

هذا التافه معه حق، عليّ أن أنظر أبعد من زاوية الثأر، فالانتقام جعلني أنظر إلى مرآة فأرى انعكاس نفسي، بينما كان يجب أن أنظر من النافذة لأرى شرور هذه العائلة وموبقاتها. عليّ أن أنظر من زاوية العدالة وأقضي على هذه العائلة بأكملها، من أجلي، من أجل همسة، ومن أجل كل الهمسات المخنوقة في هذا المجتمع... المجتمع! أصبحت أتكلم مثله الآن! واعجبي!

لم تعد القصة عن الماضي والانتقام، بل أضحت عن المستقبل والعدالة..

يجب عليّ مسايرته قليلاً والتظاهر بالاقتناع بوجهة نظره، لكنه ذكي وقد يكون خطط مسبقاً للتخلص مني، لا، لا بد أن يكون قد خطط لذلك، إنني أعبر في بحار ظلماء، عتمة الموت تداعب قدمي لكنني سأسير إلى النهاية!»

- حسناً، أين توجد تلك الشقة؟
- على بعد سبعة أو ثمانية مبانٍ من هنا

- هل يمكنك أن تزوره هناك؟
- نعم، ففي الكثير من الأحيان أذهب إليه وأجلس معه وهو يقوم بالعمليات المتعلقة بتلك الأموال.

(همست بداخلي: حسناً، هذا هو الفخ، لا بد أن ذلك المبنى محمي جيداً، ومزود بكاميرات مراقبة، الذهاب إليه مخاطرة غير ضرورية).

- حسناً، كلّمه وقل له إنك ستنتظره على الكورنيش، وستكون بسيارة ليلى لأنكما تبادلتما السيارتين!
- ولماذا على الكورنيش؟
- أعتقد أن لدي خطة، لكنها بحاجة إلى مكان مكشوف!
- لا بأس، لكن أولاً، هل نحن على اتفاق؟
- بالطبع، وأنا سجلت هذا الحوار بكامله، كي لا تقوم بغدري في يوم من الأيام. (وأخرج فارس الهاتف من جيبه وقد سجّل الحوار الذي دار بينهما).
- حسناً، أنت تريد الاحتفاظ بالأوراق القوية في يدك، وأنا لا ألومك، لكنك لاحقاً ستكتشف بنفسك أن هذا التسجيل لن يفيدك وخصوصاً أنني سأجعل من هذه المقاطعة جنةً على الأرض ومدينة فاضلة! كما أنني أتمنى عليك أيضاً ألا تقتل سمير أمامي، فمنظر الدماء يزعجني.

- غريب! جزار ويشمئز من الدماء!... لا تقلق، لن أقتله أمامك.

***

اتفق جواد آغا مع سمير آغا على اللقاء، وذهب هو وفارس بسيارة أخته ليلى، وصلا إلى المكان المتفق عليه، فأطفأ السيارة وأخذ فارس المفاتيح بالإضافة إلى هاتف جواد، ساعته ومحفظته... وترجل من السيارة.

«كنا قد اتفقنا أنه حالما يصل سمير آغا سأطلق النار عليه من مسدسي، وأصيب جواد في قدمه ليكون المشهد كأنه عملية سرقة».

ومع وصول سمير آغا واقترابه من سيارة جـواد، دوّى الانفجار!

- إياد: أين كانت المتفجرات؟
- حين تركت «الشالية»، توقفت بجانب سيارتي وأخذت حقيبة يدوية وضعتها في سيارة ليلى خلف مقعد السائق، وهذه الحقيبة عبارة عن عبوة ناسفة من المتفجرات البلاستيكية، معدّة للتفجير بطريقة لاسلكية.

وضعتها هناك تحسباً لأي طارئ قد يستجد وإدراكاً مني بأنني قد أحتاجها، وبالفعل احتجتها!

حينما نزل سمير من سيارته واقترب من باب السيارة قمت بتفجيرها.

كان المشهد رائعاً، كتلة نارية عصفت في السيارة، وحولت من فيها وما حولها إلى أشلاء، وأرسلت صوتاً هادراً، يبلسم الجراح!

- قضيت على الأربعة في ليلةٍ واحدة إذن!
- لم يكن بالإمكان تأجيل موعدهم مع الموت، كما أنه كان من السهولة في مكان أن تدعهم يستدرجون بعضهم بعضاً إلى حافة جهنم، فهم بالنهاية أخوة! أما أنا فكان يتجلّى دوري بدفعهم عن الحافة إلى تلك الحفرة الجميلة!

كان عليَّ بعد أن أنهيت الاستمتاع بمشهد الانفجار أن أدفع التحقيق بعيداً عني، وكان لدي الحقائق كافة التي تساعدني على ذلك.

- لم أفهم، كيف ذلك؟
- كان هناك ضابط مشهود له بنظافة الكف، لم يساعده هذا الأمر في الترقيات لكنه أكسبه احترام الجميع، كبيراً وصغيراً. هاتفته من هاتف عمومي، أخبرته عن أماكن القتلة الأربعة وعن أسباب قتلهم بجملٍ موجزة وبسيطة:
- المقدم إبراهيم؟

- نعم، من المتكلم؟
- اسمعني جيداً، في الشالية رقم ٩ على الشاطئ الغربي ستجد جثة سميح آغا وأخته ليلى، بجانبهم ستجد سبب موتهما، وعلى الكورنيش الشمالي دوّى انفجار منذ بعض الوقت ذهب ضحيته جواد آغا وسمير آغا وسبب موتهما ستجده في شقة صغيرة في البناية رقم كذا... وأقفلت الخط.
- لماذا كلمت المقدم إبراهيم؟
- لأنه من القلائل الذين لا يرضخون للضغوطات ولا يرتشي ولا ينفع التهويل معه. وإذا ما تسلّم قضية لا يتركها حتى ينجزها، ولن يتحفّظ على النتائج مهما كانت، وسيتم بذلك فضح هذه العائلة!
- ولماذا أردت دفع التحقيق عنك؟
- من أجل إتمام المهمة، فأمواج الموت كانت قد أدركت كتفي، ولم يبقَ إلا القليل وانتهي!

***

لم يعد فارس إلى منزله رأساً في تلك الليلة، بل ذهب إلى مقبرة المقاطعة، إلى جانب ضريح همسة، جلس القرفصاء على

ذلك الحشيش الأخضر الذي نبت من طهارتها، تلمس الحجارة فوق ضريحها، ملساء دافئة كما كانت «همسة» دائماً.

«همسة، يا حبيبة أيامي، وندى عينيّ، يا قبلةً لم تغادر الشفاه فضاع وهجها في الأثير، اطمئني فيمكنك الآن أن ترتاحي في ثراك، فأزهار الموت قد تفتحت في زوايا الحياة، قطفتها زهرةً زهرة وأرسلتها إليك وفوداً وأشلاء!

لقد غابت أجسادهم عن وجه هذه الأرض، فتخلّص العشب من تلك الظلال الكريهة!

آه كم أشتاق إليك، هل اشتقتني كما أشتاقك؟ هل يملأك الفراغ كما يملأني على فراقك؟ هل لياليك صعبة وموحشة كلياليّ الباردة؟ الشوق يقتلني يا حبيبتي، لكن حضورك في الدماء الجارية يعطيني القوة لإنهاء مهمتي. انتظريني فلم يتبق إلا مهمة بسيطة واحدة، سأنجزها وألتحق بك في كوخنا الأبدي.

لقد تسببت بموتك من حيث لا أدري، وكان عملي الذي لطالما أصررتِ عليّ بتركه سبباً في موتك، فهل تسامحينني؟

لقد حاولت أن أحميك بالبعد، وحاولت أن أخبئكِ خلف المسافات، لكن أصابع المكر امتدت إليك، وقلوب الشر تآمرت على قتلك، وكل ذلك للإيقاع بي. لقد قتلتك دون أن أعرف، دون أن أشعر، دون أن أنتبه، فهل تسامحينني؟

أتذكرين، ذلك اليوم، حين رأيتك للمرة الأخيرة؟ حين تحول الجدال بيننا إلى عراك، لقد كنت أطالبك بالصبر قليلاً، وأنت التي صبرتِ سنوات وسنوات، لقد كان سؤالك قاسياً بينك وبين عملي من أفضّل! ألم تدركي أنك أنت التي أفضلها على الكون يا علّتي وسببي! لكنني لم أكن قادراً على الانسحاب من تلك المعمعة! ولا كنت قادراً أن أجرّك إليها، ولا كنت قادراً أن أفسّر لك. لقد أجبتكِ أنني أفضل عملي وقلبي ينفطر، ورحلت أنت قائلة: الوداع. لقد كنت أحاول حمايتك مني ومن عملي، لكنني فشلت!

لقد حاولت بعدها أن أتكلم مع «شوقي» ليعيدني إلى القصر، وأتسلّم مكان والدي المتوفي، لكنه رفض. لم يكن التخلي عني سهلاً، وهذا ما كنت على يقين منه، فلا يمكنه تركي بعد كل تلك التدريبات والعمليات التي قمت بها... لكنني حاولت!

كنت أريد الذهاب عند فؤاد باشا لمفاتحته بالأمر، لكن موتك سبقني إليك، فسامحيني يا حبيبتي... سامحيني!».

سمع فارس صوت «سراف» خلفه:

- ما الذي تفعله بي أيها الكائن التافه؟
- ماذا؟ ألست مسروراً بالدماء التي تدفقت اليوم؟!
- كنت سعيداً، إلى أن تغيّر طعم الدم، لقد زاغت نيتك ولم يعد الحقد يردف القتل، وقد شربت من الدماء سماً يبدو

أنه صنف من أصناف «العدالة»! انظر إليّ أيها التافه حين أكلمك، لقد بدأت تنبت الأجنحة على ظهري!

استدار فارس ناحية «سراف»، ولاحظ أنه قد تغيّر قليلاً فأصبح رمادياً بعد أن كان حالكاً، وقصر قرناه حتى كادا يختفيان، وظهر جناحان صغيران من فوق كتفيه، كان منظره غريباً، مضحكاً بل ربما يدعو إلى الشفقة... آه، الشفقة على شيطان!!

قهقه فارس من منظر «سـراف»، فاستشاط غضباً وعاد للانغماس به مشكّلاً ظلّه، لكن هذا الظل قد بات أقل قتامة، لكأنه أفتح لوناً!

المأتم

قاسيةٌ رياح الشمال إذا ما هبّت، جافة الأصابع خشنة الملمس، تتقدم مهرولةً غير عابئةٍ بجمادٍ أو إنسٍ أو نبات، تطبع قبلة الصقيع على فم من تصادفه فتحيله منحوتةً ثلجية باردة. وكذا الموت، يأتي بارداً صاعقاً يخطف لهيب الروح تاركاً البدن شمعاً بارداً في عتمة الحياة.

بعد انقضاء الأسبوع، والانتهاء من التحقيقات الجنائية والتحقيق مع المومس التي وجدت في صندوق السيارة في حالة هستيرية! تم تسليم الجثامين و«الأشلاء» إلى فؤاد باشا الذي حضر برفقة كوكبة من مناصريه وحرسه القديم إلى المستشفى المركزي للمقاطعة. وإذا تساءل امرؤ لماذا لم تكن الست «استير» – والدتهم – موجودة، فلأنها قد أصيبت بسكتة دماغية بعد سماعها الخبر، وما لبثت أن قطعت تذكرة مستعجلة ومرّ قطار الموت بها! وهذا الفالج بمعظمه غير ناتج من فقدان أولادها بقدر ما هو ناتج

من انكسار غرورها وإحساسها بالوهن المفاجئ الذي سقط على كبريائها فأسقطها معه!

كان فؤاد باشا، الخبير بالحياة، الثعلب بالسياسة، قد أشاع بين حاشيته أن هذه المجزرة لا تستهدفه وحده، بل هي مؤامرة على المقاطعة بذاتها وأهلها الوديعين الطيبين، وأن الفاعل باستهدافه لهذه العائلة إنما يستهدف كل عوائل المقاطعة. ولذلك فإن كل غرابٍ مقرّب منه بالمصلحة بدأ ينعق بنظريةٍ، ويحمّل المسؤولية لجهة ما داعماً رأيه بتحليلات عرقية أو مناطقية أو مذهبية أو حتى وطنية وذلك تبعاً للمستمع!

أقيم المأتم في مركز المقاطعة، وسالت الحشود من كل حدب وصوب، تلبية لنداء «الوفاء» و«الكرامة» و«الأمل» وكل المصلطحات اللغوية التي أفرغها السياسيون من معانيها وحولوها إلى شعارات فارغة، تستعمل عند الضرورة لحشد الغوغاء واللعب على مشاعرهم! وفي هذا المعرض لا بأس إن عرّجنا على أنواع الحشود التي حضرت:

هناك، إلى جانب فؤاد باشا وقف «باشاوات» المقاطعات القريبة، كان الخوف يزاحم الحزن على وجوههم الصفراء، كيف لا، وهم يطالعون سيناريو «وفاة» قد يصيبهم في أي لحظة!

يميناً، كان رجال السياسة والمستشارون يتهامسون ويحللون

الأبعاد «الإستراتيجية» والنتائج المترتبة عن هذه المجزرة، وبجانبهم رجال السفارات من ملحقين عسكريين وثقافيين- عسكريين والذين يشكّون بأن الجالس قربهم يعرف حقيقة الأمر، وأن دولته على دراية تامة بما حصل وكيفية حصوله! بالإضافة إلى جوقة من حيتان الأعمال ورجال الأمن... وما يجمعهم هو البكاء على مصالحهم والقلق على أعمالهم وأموالهم وسياسات دولهم المستقبلية في هذه المزارع الكبيرة!

يساراً، تواجد العديد من رجال الدين على اختلاف أطيافهم، وسنترك سر إحساسهم في تلك اللحظة عند خالقهم؛ فإذا كان بعضهم جيداً فلا يجوز القول بأنهم أشرار، وإذا كان بعضهم سيئاً فلا يجوز القول بأنهم أخيار!

أمّا في المشهد الخلفي، فقد غصّت الساحات بالجماهير، البكاة تباروا في استدماع أعينهم وغسل الطرقات، الندابون تباروا في استنطاق حناجرهم ومراقبتهم للأحجار إذا كانت ستدمع!

أما الناس العاديون الطيّبون، فقد حضروا وملائكة الموت جنباً إلى جنب. بعضهم يبكي وفي داخله الخوف وبعضهم الآخر يبكي وفي داخله الفرح. بعضهم يبكي والقلق يعتريه وبعضهم الآخر يبكي والحيرة تمزقه. تضاربت المشاعر ما جعل الجو

خانقاً، فاستمطرت الملائكة الغيم لتبريد الأجساد والأرض المنهكة تحتها!

ألقيت الخطابات الطويلة الرنانة، واستحضر الخطباء (وغالبيتهم من السياسيين) أبلغ ما قيل في الرثاء والحزن حيث صُفّت الكلمات لهم بطريقةٍ تراعي تحصيلهم العلمي من جهة ولغتهم العربية «الممتازة» من جهة أخرى، واستنزلت الرحمات استنزالاً!

مرّت النعوش الأربعة، بين دمعة عينٍ وبسمة فم، إلى مثواها الأخير. راقب فؤاد باشا كيف يزيل التراب أولاده ويزيل معهم معظم جبروت عائلته، وتساءل إذا كانوا سيستطيعون المرور من خرم الإبرة وإذا كانت ألقابهم ستسعفهم!

انتظر فارس إلى أن أنهى «رفيعو الشأن»، وهم بغالبيتهم العظمى قوّادون بثيابٍ رسمية، تقديم تعازيهم، وتقدم برفقة حسان وعادل لتقديم واجب العزاء لفؤاد باشا. وكم كانت دهشته كبيرة حين غمره فؤاد باشا طالباً منه أن يزوره في القصر عاجلاً وليس آجلاً!

«ما أجمل المصادفات! أنا الذي كنت أفكر كيف سأصل إليه فإذ به يدعوني بنفسه! فعلاً، عندما يدق عزرائيل الباب فلا بُد من أن يُفتح له!».

إياد: لماذا لم تخطط لقتله في المأتم نفسه؟

- ولماذا أخاطر بأن أجعله بطلاً أو شهيداً حياً إذا ما اخطأته! ثم إذا لم تكن الإصابة قاتلة سيغدو الوصول إليه مستحيلاً!
- كيف ستجعله شهيداً حياً؟ لم أفهمك!
- الطريقة الوحيدة لاغتياله من دون أن أؤذي الناس حوله ستكون بالقنص من بعيد؛ ولأن رجال الأمن سينتشرون بكثافة فيجب الابتعاد أكثر، وبذلك لن يكون هدفاً واضحاً وقد لا أصيبه بمقتل.
- حسناً، وذهبت لمقابلته؟
- صحيح، ذهبت لمقابلته.

المواجهة

في تمام الأسبوع حضر فارس إلى القصر الكبير، استقبله الحراس على باب القصر، أخذوا سيارته وأجروا له تفتيشاً دقيقاً. ترك مسدسيه اللذين يحملهما دائماً في قسم الأمانات لديهم، وصحبه أحد الحراس إلى الداخل.

مشياً في ممر حجري، على يمينه ويساره العشب الأخضر الجميل وأنواع شتّى من الزهور، وصلا الباب لكنهما لم يصعدا الدرج بل مشيا بجوار حائط القصر إلى أن وصلا إلى مبنىً قرميدي صغير، اعتاد فؤاد باشا إجراء الصفقات المهمة داخله!

دلفا إلى المبنى الصغير، وهو عبارة عن غرفة طويلة بحوالى اثني عشر متراً وبعرض خمسة أمتار؛ في قسمها الأول ثلاث كنبات حول طاولة صغيرة، ثم طاولة اجتماعات من ستة عشر كرسياً يليها مكتب خشبي خلفه مكتبة ضخمة تتوسطها صورتان لوالد فؤاد باشا وجدّه.

دمدم فارس بداخله «مسكين لم يبقَ أحد من أولاده ليضع صورة له بجانب أسلافه!».

فؤاد باشا: «لماذا تأخرت بالقدوم، اقترب.. اقترب يا فارس».

(وأشار إلى الحارس بأن يتركنا وأوصاه ألا يزعجنا أحد!).

«التقطت أذناي الجملة الأخيرة بشكّ مفرط، فهل يعقل أن أكون قد انكشفت؟ لكن لا، لو كان الأمر كذلك لما أوصاه بتركنا بمفردنا! ولما وصلت أمامه قطعةً واحدة!».

فارس: كيف حالكم فؤاد باشا. أقدّم تعازي الحارة من جديد وأسفي الشديد على من فقدتم، عساها أن تكون خاتمة أحزانكم!

- شكراً يا فارس، اجلس.

هذه الأيام صعبة جداً، والأعداء يتربصون بنا كالذئاب، ونحن أخطأنا حين لم نأخذ حذرنا كما يجب، وظننا أننا في أمان، ووثقنا بخضوع الناس تحت أقدامنا ودعم الخارج فوق أكتافنا، فقامت الكلاب بضربنا في مقتل، أولاً شوقي ومن ثم أولادي الأربعة الآخرون، يظنون أنهم بذلك سيحطمونني لكن لا وألف لا، خسئوا جميعهم!

(أومأت برأسي موافقاً على ما يقول فتابع حديثه).

إن أعداءنا يا فارس كثر، لكنني ما تخيّلت يوماً أن يصل بهم الكره والحقد إلى قتلنا بهذه الطريقة الوحشية، لذا يجب أن نكشف

الفاعل ونقتص منه، فعندما تدخل شوكة في إصبع فؤاد باشا يجب في المقابل أن تدخل جثث إلى المقابر ، فكيف إذا أرسلوا فلذات كبدي إلى حتفهم؟!

لن يرتاح أحد ما دمت غير مرتاح، أبواب الجحيم التي فُتحت على عائلتي سأغلقها على بقايا فاتحيها!

(تابعت الإيماء برأسي موافقاً، إلى أين سيصل هذا العنجهي!).

استدعيتك اليوم لسببين، الأول مهم والآخر مستعجل، أما المستعجل فستتم ترقيتك في الغد وتسليمك ملف التحقيق في هذه الجريمة النكراء؛ لقد تكلمت مع المسؤولين واتفقنا على ذلك. فأنا أريد شخصاً أثق به في الداخل وأعتمد عليه، وأنت هو ذلك الشخص، فلطالما أشاد شوقي بعملك وقدرتك وذكائك، وأنت أثبتّ ذلك بوفائك لهذه العائلة طوال السنوات الماضية.

أريد رؤوس من قتلوا أولادي على هذه الطاولة أمامك يا فارس، في أسرع وقت ممكن، لا، ليس رؤوسهم فقط بل رؤوس عائلاتهم وأولادهم والكلاب التي يربونها!

يجب أن نجعل منهم عبرةً، لكل من تسوّغ له نفسه الاقتراب منا والتفكير بأذيتنا، ليس التفكير بالأذية فقط بل التفكير في حد ذاته.

- شكراً على هذه الثقة فؤاد باشا، سأبذل جهدي لآتي بهم إليكم، وأرجو أن أكون عند حسن ظنّكم، لكن من المستفيد من هذه الجريمة برأيكم؟
- لا أعرف، لدينا العديد من المنافسين في جميع المجالات، إن كان في السياسة أو التجارة، هناك مشاكل سياسية مع بعض الأفرقاء، هناك بعض العداوات التاريخية مع العائلات الكبرى في المقاطعة، هناك مشاكل مع بعض المقاطعات المحيطة أيضاً، الأعداء كثر كما أسلفت قبل قليل، وجميعهم استفادوا من هذه الجريمة النكراء لكني أرجّح أن المخططين من خارج المقاطعة، حتى المنفذين أيضاً.
- لماذا تظنون ذلك؟
- أولاً لأن أحداً لن يجرؤ على ذلك من الداخل، وثانياً بسبب القدرات اللوجستية التي تحتاجها هذه العملية، وهذا ما لا يملكه أحد داخل المقاطعة.
- لكننا لا نستطيع إغفال هذا الاحتمال!
- بالتأكيد، لكن اسمعني جيداً يا فارس، لو كان هناك رجال في هذه المقاطعة لكنّا منذ زمن في خبر كان! فمعظم الناس هنا أتباع لنا أو مذعنون لرأينا، أو خدّام في بلاطنا،

أو محكومون بسلطاننا، أو منفيّون في غياهب الزمن. ففي هذه المقاطعة لطالما كنت الرئيس المهاب، والمجاب بغير سؤال، والمطاع بدون استفسار. ما تطاول عنق إلا وقطعته وما اشرأبت نظرة إلا وخطفتها، وما عبر ببالي خاطر إلا وتجسّد أمامي. ترى الناس يسعون لمراضاتي، زحفاً ومشياً، كبيرهم قبل صغيرهم وعالمهم قبل جاهلهم، فقد اعتادوا سيادتنا، ورضوا بموقعنا، وتحصنوا بإرادتنا، وذادوا عن مكتسباتنا، وكانوا خير عبيد قل نظيرهم، وندر صنفهم! لذلك فالاحتمال الأقرب إلى المنطق هو الاحتمال الخارجي، إحدى المقاطعات الإقليمية أو الدولية أو ربما العراب الأكبر بذاته! أما التنفيذ فقد تكون بعض أدواته محلّية!

لقد تكلمت أيضاً مع بعض الأصدقاء في السفارات فأكدوا لي أن هذه العملية ضخمة وتحتاج إلى تحضيرات لوجستية معقدة لإتمامها في ليلة واحدة، وإلى تنسيق ومراقبة يمتدان لعدة أشهر!

كما أشار أصدقاؤنا في الكوساد إلى أن الفريق الذي قام بهذه العملية عالي التدريب لأنه تنقل كالأشباح دون ترك أثر يدل عليه. كما أكدّوا وجود خرق في الجهاز الأمني المركزي لتمر عملية كهذه في غفلة ودونما انتباه من أحد.

ومعنى ذلك أن هنالك متواطئين سهلوا وأعطوا المعلومات لهذه المجموعة، وأنا أريدك على رأس هذا التحقيق لتشارك الكوساد بالمعلومات من تحت الطاولة، فهم يمتلكون قدرات تكنولوجية على صعيد تحليل المعلومات وربطها بعضها ببعض تتخطى ما نملكه بمراحل، وقد عرضوا علينا المساعدة نظراً للمصالح المشتركة التي تربطنا.

- حسناً، سأقوم بذلك! وسآتي بالقتلة إليك!
- ليس لدي شك بذلك، فلطالما قدمت خدماتك لهذه العائلة وكنت موضع ثقتنا ولم تخيّب لنا املاً. والآن نأتي للأمر المهم، وأريدك أن تنصت جيداً، فما سأقوله لك الآن كان من المفترض أن يموت سراً كما ولد سراً، لكن الظروف تتغير وتجبرنا على الإفصاح ولربما كان في ذلك خير!

أريدك ألا تقاطعني حتى أتمّ ما سأقوله، وأريدك أن تفتح عقلك وقلبك جيداً لما ستسمعه مني! هل فهمت؟

- طبعاً، تفضلوا!

منذ ثلاثين عاماً، كان لدينا مدبرة للقصر، لقد كانت جميلة وذكية، وهذا ما لفت انتباهي إليها أولاً، قبل أن يعصف فيّ ذلك الشعور الذي يسمونه حباً.

كنت أختبر هذا الشعور للمرة الأولى، فلطالما كنت سيّد عواطفي، أسيّرها كما أشاء، وأحسب الأمور بالعقل فقط من دون أدنى اعتبار للقلب!

لكن في تلك المرة، لم أستطع إلجام قلبي، وهذا أدّى إلى علاقة حب كانت ثمرته طفلاً، ما عرفت أني والده إلا قبيل وفاتها عندما أوصتني به.

الآن، وأنا في آخر أيامي، أجدني مضطراً لكشف هذا السر، وذلك بعد أن فقدت أولادي وبدأ المرض يدقّ أبواب سنواتي، فلم يعد بالإمكان إخفاء هذا السر بل أصبح من الواجب كشفه.

فهذا الولد هو آخر السلالة التي يجب أن تبقى حاكمة لهذه المقاطعة، وعليه أن يتحمل هذه المسؤولية، فهذه المقاطعة لا يمكن أن يكتب لها الصمود من دوننا!

لقد أهملت هذا الصبي بجهلي لوجوده في البداية، وعسى أن أوفق في تعويضه عما فات فيما تبقى لي من وقت، وإذا لم أكن معه في بداية حياته، فسأكون معه في نهاية حياتي.

هذا الصبي قد كبر وأصبح شاباً مقداماً، وله صولات وجولات، وهو ذكي وقوي وأنا أعرفه جيداً، ولو عن مسافة!

(تنحنح فؤاد باشا، واستوى على كرسيه، ونقل نظره يميناً ومن ثم يساراً وركّز بصره على عيني فارس، وقال):

- هذا الصبي هو أنت يا فارس!!»

سرت قشعريرة باردة في جسد فارس، ارتعشت لها عضلاته، وصرصرت بين أسنانه محدثةً فجوة بين أضلعه، ومطلقةً عاصفة من الأسئلة الممزوجة بصور من الماضي البعيد وأحاديث صغيرة لم يعرها اهتماماً، وتعليقات كان قد نسيها منذ زمن، وغمزات من هنا وهناك... كلها تفجّرت في لحظة واحدة داخل رأسه، فحاول الهرب منها صارخاً:

- ماذا تقول؟؟ مستحيل! ما هذا الهراء؟
- اهدأ، اهدأ... أعرف أن هذا الخبر مفاجئ لك، لكن عليك أن تهدأ لتستوعبه يا بني.
- كيف أهدأ؟! هل أنت تتكلم من عقلك؟! من أين اخترعت هذه القصة؟! أنت تهذي بلا شك.
- لا أنا لا أهذي، خذ (وفتح جارور مكتبه) أنت تعرف خط أمّك! هذه الرسالة كتبتها قبل عشرة أعوام وهي على سرير موتها... اقرأها!

سحب فارس الرسالة منه بسرعة وبدأ يقرأها، هذا خط أمّه بالتأكيد، فهو يعرفه جيداً. **أوصيك بفارس من بعد موتي فهو ابنك**.. «ما هذه المصيبة التي حدثت ولم تكن بالحسبان؟» **لم**

أرد منك شيئاً في حياتي لك ابقَ عينك على ابننا.. كان فارس يلتهم أحرف الرسالة بعينين ثاقبتين، محاولاً أن يجد الخطأ في الرسالة، خطأ المزوّر الذي كتبها، **احرص على أن يتزوج ويبني عائلة وساعده إذا احتاج لمساعدة**.. أين ذلك الخطأ؟ **ابقِه بقربك واعطف عليه**.. لكن فارس لم يكتشف الخطأ المفترض فتهاوى على الكرسي وبدأ بالضحك بل بالقهقهة!

- اتزن يا بني، وانصت إليّ، إن كل ما تراه عيناك وما لا تراه سيكون لك، وسيكون عليّ تعليمك الكثير من الأشياء، وأنا مريض والوقت لم يعد يسمح، أوقف هذا الضحك... ما الذي يضحكك في الموضوع؟!
- المضحك يا فؤاد باشا أن القتل ينتقل بالجينات على ما يبدو!
- ماذا؟ ما الذي تعنيه؟

تابع فارس الضحك، محاولاً أن يجعله قناعاً يخفي الوهن الذي اعتراه، والسخط الذي عصف به، والشعور بالدونية لأنه لقيط! وأخذ يتمتم بداخله:

«إذا كان ما يدعيه صحيحاً، فسأكون قد قتلت إخوتي بيدي! لكني لم أكن أعلم، حتى لو علمت كان يجب أن أقتلهم! «همسة»،

لقد قتلتهم من أجل حبي الضائع! لماذا كان عليهم قتلها؟! الكلاب، إخوتي الكلاب!..

ألهذا ارتعشت يدي حين وضعت المسدس في فم شوقي؟! هل استيقظ الدم الواحد الذي يجمعني به؟! لكن لا، فأنا عدت وقتلت سميح وليلى دونما رفة جفن!

جواد أراد قتلهم وهو يعرف أنهم أخوته! لا، ليسوا أخوة بل حفنة من الحثالة، وهذا رأسهم هنا، ويجب حصد الرأس.

لكنه قد يكون أبي! وأنا لقيطه! ما هذا الفخر في نهاية العمر؟! لا بأس، فكثير من اللقطاء أصبحوا ملوكاً وأنبياء لاحقاً، فلن يضيرني أن أكون بخانتهم!

ما الذي عليّ فعله الآن؟! تلك الآلة الصغيرة لفتح المظاريف ستفي بالغرض. لا، لست بحاجة إليها، يداي ستفيان بالغرض، لا بد من الانتهاء الآن».

نهض فارس وبدأ بالمشي بجانب المكتب نحو كرسي فؤاد باشا.

- أتعلم يا فؤاد باشا، إنني أعرف من خطط ونفذ عمليات القتل بأدق التفاصيل!
- ما الذي تعنيه؟

- لم تكن جهة خارجية، ولم تكن عملية ضخمة بالشكل الذي وصفتها به، ولم تكن مؤامرة هدفها تقويض حكمك المزعوم. إن من خطط لهذه العملية في البداية كان ابنك جواد، أما من نفذ هذه «المجزرة» حسب قولك فقد كان أنا الواقف أمامك، وذلك كله دون وجود أي اتفاق مباشر بيني وبينه.
- ما الذي تقوله؟
- أريدك أن تحس بعلقم الحقيقة في فمك قبل أن تغادر هذه الحياة وتلفظ أنفاسك الأخيرة. إن من خطط لقتل أولادك هو ابنك جواد ليرث كرسيك، وإن من نفّذ هذه العمليات هو «ابنك» الآخر، فعلى ما يبدو أن دود الخل لا بدّ أن يكون من جنسه.

حاول فؤاد باشا الوقوف عن كرسيه فأقعده ذهوله قبل أن ينقض فارس عليه ممسكاً رأسه بين يديه، فكسر له رقبته ورماه جثة ساكنة تفوح النتانة منها وهي لا تزال حارة!

«أشعلت سيجاراً من علبة السجائر الكوبية التي كانت على المكتب، أشعلت النار في الرسالة، وضعتها في المنفضة وجلست على الكرسي أتأمل تلك الجثة المرمية على الأرض.

أين جبروتك وعظمتك الآن يا فؤاد باشا؟ أين من يسعون بين يديك؟ أين السلطة والنفوذ؟ أينك أنت من الوعد المحتوم؟!

ها أنا أجلس مطمئناً، فقد تخطيت أمواج الثأر وعبرت إلى شاطىء العدالة.

***

إياد: لا أصدق، أيعقل هذا الكلام؟ أيعقل أن تكون ابنه؟

فارس: لا أدري، لربما كان هذا صحيحاً، فالاحتمال موجود بما أن الرسالة موجودة وقد يكون تلفيقاً وتزويراً من رجل فقد كل من يرثه وأراد إبقاء اسم عائلته ولو بدماء أخرى! وهذا حصل في مقاطعات أخرى، لكن ماذا يهمني؟! فحتى لو كان صحيحاً فهذه السلالة ستنتهي معي، وسأكون قد أتممت عملية التنظيف!

- لقد وجدوك تدخّن إلى جانب جثته، والتقرير العسكري يشير إلى أنك لم تقاوم الحرس حين اعتقلوك ولم يبد منك أي سلوك عدائي، لكن السؤال لماذا لم تهرب؟
- لقد أنجزت مهمتي، وأجهزت على هذه العائلة، وإني بشوق لـ«همسة» فلماذا سأهرب منها؟ إنني أحث الخطى لألقاها.
- لكن القتل ليس حلاً، بل جريمة!
- كلما ولد شيطان في هذا العالم، ولد له قاتله!

- أتعتقد أنك قضيت على الفساد بقتلك لهذه العائلة؟
- أتعرف أنه يقال إذا زرعت شجرة اليوم فستصبح غابة بعد مئات السنين، وقطع جذع هذه العائلة قد يساعد على تحول هذه المزرعة العمياء إلى دولة ولو بعد ألف عام!
- وهل تظن أنك تطهّرت بذلك؟
- ما قمت بذلك لأصبح طاهراً بل لأتحرر! فأنا أعرف أنني لست مصلحاً ولا فادياً ولا مخلصاً جديداً، يداي غارقتان في الدماء حتى الكتفين، لكنني لم أكن مدركاً وواعياً لما أفعله، كنت أظن أني أخدم أمن هذه المقاطعة... كنت أعمى!

لقد كان الثأر لهمسة عملية التطهير لروحي، والأسابيع التي قضيتها هنا في جلسات التعذيب تطهيراً لجسدي، وبذلك أكون قد قدمت حسابي الأرضي وإنني جاهزٌ لتقديم حسابي السماوي!

التحقيق، السجن والمحاكمة

أمسك حرس القصر بفارس، وتم إبلاغ الدرك بالجريمة، وما لبثت أن وصلت مجموعة منهم قامت باقتياد فارس إلى المركز الأمني وسط المقاطعة.

كان بعض العناصر يعرفونه، فتفاوتت ردة الفعل بين الخوف والشماتة، كما تباينت طريقة التعامل معه بين الضرب والشتم، وبين المداراة والمسايرة.

وصلت الشاحنة والعربات التي تقلّ فارس إلى المركز، وكان وصوله يتزامن مع انتشار خبر قتله لفؤاد باشا.

دخل مطمّش العينين، وقادوه إلى غرفة التحقيق حيث أنبأته ذاكرته بها، وهو الذي يعرفها جيداً، لكن هذه المرة كان يجلس على الكرسي المقابل كمتهم!

بعد مرور بعض الوقت، دخل بعض رجال الأمن وأزالوا الغطاء عن وجهه، فوجد نفسه بين يدي المقدّم إبراهيم!

- المقدم: أنت هنا لأنك وجدت بجانب جثة «فؤاد باشا» وعلى ما يبدو فقد استغليت تدريبك العسكري لقتله ببرودة ووحشية! هل قتلته؟
- نعم
- أريد أن أعرف لماذا قتلته؟

(لم أجب)

- من حرضك على قتله!

(لم أجب)

- من قام بتجنيدك؟

(لم أجب)

- من دفعك للقيام بهذه الجريمة؟

(لم أجب)

- هل قدموا لك أموالاً؟

(لم أجب)

- هل جنّدك الكوساد؟

(لم أجب)

- لماذا أرسل بطلبك؟

(لم أجب)

أمطرني بالأسئلة، ولم أجبه، فليس لدي ما أقوله، فما قمت

به لن يفهمه إذا ما شرحته له، وقد يفهمه ويؤخر ذهابي عند «همسة»!... فآثرت الصمت!

- الصمت لن يفيدك يا فارس، وما نريد معرفته سنعرفه باللين أو بالشدة وأنت تدرك ذلك، فمن الأفضل أن تتعاون معنا!

(لم أجب)

- الصمت سيقودك إلى حبل المشنقة!

(إنه يهددني بما أبتغيه! يا للسخرية!).

- ستكون نهاية حياتك!

(لقد أصبحَت في المرآة الخلفية).

- حسناً، لقد اخترت الطريق الصعب!

ترك المقدم إبراهيم غرفة الاستجواب، وعند خروجه أمر بتحطيم فارس لاستخراج المعلومات منه بأية وسيلة ممكنة مركزاً على إيجاد «الدافع» وراء هذه الجريمة.

قام المحققون لاحقاً بمحاولة تحطيم فارس بضربه بقبضات الأيدي والعصي الخشبية والمطاطية والكرابيج، ومحاولة التأثير في نفسيته بالشتم والقدح والحط من كرامته وتقليب أفراد سلالته في مقابرهم، وبقي صامتاً.

قاموا بتمديده على بطنه مكبل اليدين والرجلين خلف ظهره

ورمي الماء البارد والحار عليه بالتناوب ومن ثم جرى صعقه بالكهرباء، وبقي صامتاً!

قاموا بتعليقه رأساً على عقب وسط زنزانة تحت الأرض وجلده، وتشطيبه بالموسى وحرقه بالسجائر في أنحاء جسده كافة وفي المناطق الحساسة، وبقي صامتاً!

قاموا ببتر بعض أصابع يديه وبعض أصابع قدميه، فكواها بالصبر، وبقي صامتاً!

ثلاثة أيام وُصِلَ نهارها بليلها بين تحقيق وتعذيب، ترغيب وترهيب حتى تحوّل جسد فارس إلى لوحة سريالية زرقاء اللون، وبقي صامتاً!

في هذا الوقت كان الضغط السياسي والشعبي يزدادان لتعليق مشنقة القاتل بأسرع وقت ممكن، فقد هزّت هذه الأفعال كيان المجتمع الذي اعتاد وجود «الراعي»، وبدأ القطيع يتشتت!

لم يستطع المقدم إبراهيم دفع فارس للاعتراف بشيء، رغم الأساليب اللاإنسانية التي استعملها المحققون معه، لكن الادعاء بنى قضية قوية حيث ضبط فارس في مسرح الجريمة، والمجني عليه مقتول بطريقة احترافية والبصمات موجودة وكذلك اعتراف المتهم بجريمته، أما الدافع فبقي مجهولاً!

تم اتفاق أمني – قضائي بتغييب الدافع، وربطه بأمن الدولة

لوضعه تحت خانة «سري»، وميزة هذا الاتفاق هو القدرة على ابتداع الدافع لاحقاً واستثماره سياسياً!

المحاكمة العسكرية الصورية التي أجريت لاحقاً لم تتعدَ الدقائق حيث حكم على فارس بالإعدام بتهمة قتل «فؤاد باشا» عن سابق تصور وتصميم!

بعد صدور الحكم تم إيداع فارس في السجن المركزي ذي الحراسة المشددة، بانتظار تنفيذ حكم الإعدام «المستعجل» بحقه!

اللحظات الأخيرة

بسط إياد كفّيه وألصقهما بعضهما ببعض، مرتكزاً بكوعيه على الطاولة، ونظر مليّاً إلى فارس وقال له:

- إني متعاطف معك يا صديقي بعد الذي أخبرتني إياه، الأحداث تبدو مترابطة، رغم أنك حوكمت على الجريمة الخطأ، وكان الأجدر أن تحاكم عن حياة مليئة بالقتل والإجرام! وها أنت الآن تنتظر أن تشرب من الكأس ذاتها التي سكبتها لهم.
- أنا لم أقتل يوماً باسمي بل باسم المقاطعة، وحينذاك كنت أعتبر بطلاً، لكن حينما قتلت باسمي، باسم الحب، باسم «همسة» صرت أعتبر مجرماً؟!

أما الكأس فليست ذاتها، فأنا سكبت لهم الموت وهم متمسّكون بالحياة، أما أنا فاشرب الموت وأنا له بكلّيتي!

- طيب، وما الذي يثبت لي صحة ما ادعيته؟
- بالقرب من بيتي في الجبل، هناك غابة صنوبر، بعد أن

تدخلها، ستجد جدولاً صغيراً، اتبعه إلى أن تصل إلى مصبّه في النهر عندها التفت يميناً فستجد صخوراً مرتفعة، تظللها أشجار الوزال الكثيفة تحتضن وسطها كهفاً صغيراً وتخفيه، ستجد بداخله صندوقاً صغيراً يحتوي هواتف سميح وليلى وجواد، ومحفظاتهم ومفتاح سيارة ليلى وشققها، كما ستجد بداخله وثائق وأسراراً عن الكثير من العمليات التي قمت بها، وبذلك ستتحقّق بنفسك مما أقوله!

- على افتراض أن ما تقوله صحيحاً، لماذا اعترفت لي بكل هذا الآن، ولم تعترف به خلال التحقيق معك؟
- لأنك يا صديقي أردت معرفة الحقيقة، ومعرفتها الآن لا ترد قدراً أصبح محتوماً ولا تؤجل ذهابي إلى مقصدي! وقد تفيد هذه الكلمات من يأتي بعدي فينظر ويعتبر، كما أنها تصلح قصة ترويها لأحفادك في المستقبل!

***

قاربت الساعة الثالثة فجراً، فدخل المقدم إبراهيم وأحد رجال الدين إلى زنزانة فارس في السجن المركزي، فوقف إياد مؤدياً التحية وتنحّى جانباً.

- المقدم إبراهيم: هل أنت جاهز يا فارس؟

- نعم، هل أنتم كذلك؟!

تغاضى المقدم إبراهيم عن سخرية فارس وصوّب أنظاره إلى المعاون إياد قائلاً «هل أنهى عشاءه؟».

- إياد: نعم، لقد غطّس كل قطع الخبز بالزيت وتناولها.

خطا رجل الدين متوجهاً نحو فارس، فعقد فارس حاجبيه مشيراً إليه بسبابة يده ألا يقترب منه، فوقف مذهولاً في مكانه!

- رجل الدين سيخفف عنك يا فارس.
- وهل تعتقد أن حملي ثقيل؟!
- تكلّم معه، فقد يريحك ما سيقوله لك.
- لا داعي فأنا مرتاح وهادئ البال!
- حسناً، دعوه، فلن تتغير وجهة قطاره في جميع الأحوال! هيا فقد آن الأوان.

وقف فارس فتقدم عنصرا أمن من خلف المقدم إبراهيم وقاما بوضع الأغلال حول معصمي فارس واقتاداه أمامهما، بينما سار المقدم إبراهيم في المقدمة والمعاون إياد خلفهما نحو الباحة الخارجية للسجن.

لاحظ إياد أن لون ظل فارس يختلف عن الظلال الباقية، لكأنه يميل نحو الأبيض! فتمتم بداخله «أيمكن ذلك؟ لا شك بأنه يستحق الإعدام لكن ما قام به لاحقاً أيشفع له؟ وهذا الظل الأبيض

أهو حقيقي، أم أنني لا أزال مأخوذاً بحديثه وعقلي يريني الوهم؟ شيء محيّر للغاية لكنني أعتقد بأنني سأحزن على موته..!».

كانت فرقة الإعدام جاهزة، وتم ربط الأغلال التي تكبل معصمي فارس بقطعة حديد مثبتة على عمود خشبي.

مرّ نورٌ ساطع، فوق ساحة الإعدام، اعتقده الجميع شهباً لكن فارس رأى وجه «سراف» وقد استحال ضوءاً أبيض تتلألأ الابتسامة على محياه.

اقترب المقدم إبراهيم، ممسكاً بقطعة سوداء لتطميش عيني فارس، فأدار فارس رأسه معترضاً.

المقدم إبراهيم: أضعها على فمك إذن، فلا تسقط صرخة تألم أو زفرة «آه» بغفلة من كبريائك؟

- حسناً
- ألن تقل لي لماذا قتلته؟
- كان الموت عليه واجباً!!
- وهو واجب عليك الآن لتنتهي القضية!

وضع المقدم القطعة السوداء على فم فارس، واستدار، ثم عاد ونظر إلى فارس قائلاً:

«أبلغ تحياتي لصديقي جواد آغا!» (مع ابتسامة منتصر ظافر!)

- أطلقوا النار!...

المحتويات

الإهداء ٩
السيد عابد – «المتدين» ١٩
الليلة الخريفية ٣٣
شوقي آغا ٤٥
سميح آغا ٥١
قفص العصفور ٥٩
العصفور والعصفورة ٧٣
رأس الأفعى ٨٧
المأتم ١٠٥
المواجهة ١١١
التحقيق، السجن والمحاكمة ١٢٥
اللحظات الأخيرة ١٣١

فايز غازي

تخرج من الجامعة اللبنانية الدولية عام ٢٠١٠ بإختصاص التصميم البياني، اكمل لاحقاً دراسته في التسويق والعلاقات العامة. صدر له رواية "مناي" عن دار "أبعاد" عام ٢٠١٣، ونشر عدة مقالات صحفية في نهار الشباب و شباب السفير ومواقع الكترونية اخرى.

"أزهار الموت" هي روايته الأولى عن دار الفارابي.

"قاسيةٌ رياح الشمال اذا ما هبّت، جافة الأصابع خشنة الملمس، تتقدم مهرولةً غير عابئةٍ بجمادٍ او انسٍ او نبات، تطبع قبلة الصقيع على فم من تصادفه فتحيله منحوتةً ثلجية باردة. وكذا الموت، يأتي بارداً صاعقاً يخطف لهيب الروح تاركاً البدن شمعاً بارداً في عتمة الحياة."

"كان سؤالاً واحداً يقضّ مضجعه على الدوام، لماذا قتلوها؟ ومن الذي اعلمه بقتلهم لها! ما غايتهم وما هدفه؟ اهو صديق ام عدو؟ وهل بقي أصدقاء في هذا العالم! ما الذي يبتغيه منه ذلك الشبح الغامض! حاول تحليل الموقف عشرات المرات، ووضع الفرضيات، ومحاولة تتبع مصدر الرسائل، لكن محاولاته لم توصله لنتيجة."

ISBN 978-614-485-044-2
9 786144 850442